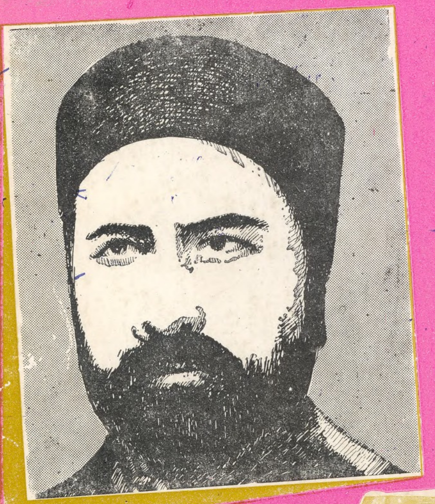
أبو القاسم محمد كرو





3

خير الدين التونسي



خير الدين التونسي

اعلامنا
③

خير الدين التونسي

حياته

اعداد وتقديم :

أبو القاسم محمد كرو

طبعة ثانية ـ مزيدة ومنقحة

دار المغرب العربي ـ تونس

*

الطبعـــة الأولـــى 1958
الطبعة الثانيـة 1973/8/30

الشركة التونسية لفنون الرسم

مقـــدمـــة

الطبعـة الأولـى

كان الاستعمار الفرنسى اثناء احتلاله البغيض الطويل لتونس ، يهدف ، فى ميدان الثقافة والفكر ، الى غايتين خطيرتين بين غاياته الخطيرة المتعددة :

اولاهما : نشر الجهل الكامل بين المتعلمين فى مدارسه بكل مـا يتعلق بتاريخنا وماضينا وكل ما يتصل بتراثنا الممتـاز ورجالاتنـا الخالدين ، حتى يشب ابناؤنا وهم لا يعلمون من تاريخ شعبهم وامجاده وتراثه اى شىء ، بل يعتقدون ان شعبهم ليس له تاريـخ ولا مـاض ولا تراث او رجال يعتز بهم ، وانه شعب تافه ضائع عبر العصور ، تاريخه ظلام وماضيه عقيم ٠

الثانية : تعليم ابنائنا كل صغيرة وكبيرة عن تاريـخ فـرنسا وامجاد فرنسا ، وجغرافية فرنسا ، وابطال وعظماء فـرنسا ، حتى يشبوا وهم يعتقدون ان فرنسا هى موطن الحضارة ومنبع المعرفة ، ومصنع العباقرة الخالدين ؛ من علماء وادباء وفلاسفة وفنانين ونبغاء فى شتى الميادين ٠ وهدف الاستعمار من هذين المسلكين واضح كل الوضوح ، وهو ان يثير فى نفوس اجيالنا الاشمئزاز من الانتساب الى أمتهم واحتقار ماضيها الفارغ وتاريخها العقيم ، وجعلهم ينظرون الى فرنسا فى هالة من الاجلال والتقديس دونها إجلال الآلهة وتقديس الانبيـاء ! ؛

والأمة التى يستطيع الاجنبى ان يغير مقاييسها ، ويبدل ولاءها ويزيف شخصيتها ويمسخ عقلها انما هى امة تافهة حقا ، ضائعة فعلا ، مصيرها الفناء ونهايتها الزوال ٠

والاستعمار بعد ذلك يرمى الى وأد الشعور بالكرامة والاحساس بالذات التاريخية التى تملأ النفس اعتزازا والقلب ايمانا والفكر بصيرة ووعيا بكيان الامة وحقها التاريخي ، ـ فضلا عن الواقعى والطبيعى ـ فى ان تعيش أمة مستقلة بحياتها ونظامها وشؤنها مثلما هى مستقله بذاتها ، وتاريخها وامجادها ٠

ولهذه الاسباب مجتمعة كانوا يعلمون اولادنا فى مدارسهم عظمة ديكارات ونابليون و « جول فيرى » ويهملون تماما عظمة ابن خلدون ، وأسد بن انفرات ، وخير الدين التونسى ٠ بلان ضميرهم قد بلغت به الغواية والاثم حدا سمح لهم بان يعظموا « جول فيرى » الذى فرض على تونس الاحتلال والاغلال ، وما يتبعهما من عبودية ومهانة ، ان يعظموه بكل مظاهر التعظيم والاكبار ، فاقموا له تمثالا فى اعظم شارع بعاصمة تونس ، واطلقوا اسمه على نفس الشارع (1) ، ثم بلغ بهم الغرور الاستعمارى وجراءة التحدى ان سموا مدينة كاملة باسمه (2) بينما لا نجد اى ذكر لرجل آخر عاصره ، وقاوم سياسة بلاده التى كانت تكيد لنا وتهيء الظروف لاستعمارنا وابتلاع وطننا ، فكان خير الدين يبذل كل جهد ويعمل بكل وسيلة لايقاف الخطر المتربص ، والقضاء على النوايا الخبيثة قبل ان تتحول الى اعمال حقيقية ٠

---

(1) أزيل هذا التمثال سنة 1956 عقب الاستقلال مباشرة ، كما أبدل اسم الشارع باسم « الحبيب بورقيبة » .

(2) هى مدينة (منزل بورقيبة) اليوم ، وكانت تدعى « فيرى فيل » .

ويصل الاستعمار الى نهاية الضلال والانانية العمياء ، حين يمحو كل اثر لخير الدين فى هذا الوطن وخاصة فى المدرسة الصادقية ، وهى المعهد الذى اسسه خير الدين ، ليكون نواة المعرفة الحديثة ومصنع الرجال الجسورين ، الذين سيغيرون وجه التاريخ ، ويتحملون الاعباء التى عجز خير الدين عن حملها ، ويحفظون لتونس كيانها وشخصيتها ويعيدون اليها استقلالها وكرامتها .

اجل ! كان خير الدين يهدف الى هذا كله ، بعد ان ادرك ان اعماله كلها ستهدم ونضاله سينتهى ، وصروحه ستنهار .. الا صرح العلم ، فانه سيظل يبشر بالرسالة ويوحى بالواجب ويثير الحمية ، ويستنفر القلوب نحو الغاية العظمى التى عاش لها خير الدين ونافح عنها وتحمل كل ضنى واذى فى سبيلها ، الا وهى تخليص الوطن من الحكم الاجنبى ، والسير به فى موكب النور والحضارة المعاصرة .

كان خير الدين عسكريا ، ومصلحا ، وسياسيا قديرا ، ومفكرا بصيرا ، عالج كل الامور بسداد رأى وقوة عزيمة وضمير يقظ نظيف ... ولكن الدسائس والخيانة وفساد الملوك وانانيتهم جعلته عاجزا عن الوصول الى الغاية المنشودة والهدف الواضح الكبير ، فتخلى عن كرسى الحكم وهو يعلم المصير الاسود الذى سيقود البلاد اليه من سيخلفه فى كرسى الرئاسة ، ولكنه كان عظيم الامل بل اكيده فى ان الخلاص سيتم على ايدى رجال يحملون نزاهة نفسه ، وطهارة ضميره ونقاوة قلبه ، وحرارة حماسه ، وصدق ايمانه ، وقوة عزمه ، ووضوح تفكيره ، وتقدمية مذهبه ، وانقلابية منهجه .. فتتم على ايديهم الامانى ، ويحققون ما لم يستطع تحقيقه ، لما فيهم من صفات مكملة ، ولديهم من اساليب مستحدثة تغالب العدو ولا تغلب به ، وتحاربه بكل وسيلة وبأى سلاح دون ان تشهر عليه الحرب او ترفض السلام .

وها نحن اليوم ، قد تحققت اهدافنا الوطنية ، ونعمنا بالاستقلال الكامل .. ذلك الاستقلال الذى كان خير الدين يريد ان ينقذه من براثن الاستعمار فى القرن التاسع عشر فلم يكتب له النصر ...

وانه لواجب على الاحرار ان يذكروا الابطال الذين بذلـوا نفيس حياتهم وعبقريتهم فى بناء تونس الحديثة ، ووضع اسس نهضتهـا الشامخة ·· وخير الدين هو مؤسس تونس فى القرن التاسع عشر واول من عبد لها الطريق نحو الحضارة العصرية ، والحياة الجديدة ، والفكر العلمى الخلاق ·

ان خير الدين رجل لم تلده تونس · ولكنه وفـد اليهـا شابـا فاحتضنته وتبنته ، ومنحته اسمها وثقتها ، فمنحها حبه واخـلاصه وانقطاعه لخدمة شعبها وبناء مستقبله ، فكانت له أما رؤوما وكان لها ابنا بارا صدوقا ·

وبعد ·· فهـذه فصـول عـابرة كتبـت عـن الوزيـر المصلـح خير الدين ·· لا ازعم انها دراسة عنه بأى معنى من معانى الدراسة ، وانما هى صور خاطفة لحياة رجل عظيم أحب تونس وانتسب لهـا ، فمنحته اسمها كاملا ، ومنحها اخلاصه وتفانيه كاملين ·

ولست اهدف منها الى اكثر من تذكيـر الجيـل الجـديد بمـاضيه المجيد ، وتراثنا الرائع ، وعظماء شعبنا الخالدين ، هـؤلاء العظمـاء الذين اراد الاستعمار ان تموت ذكراهم وتنسى اهدافهم وآمالهم ·· ولكن الله يأبى الا ان يتم نوره ولو كره المستعمرون ·

تونس 1958/9/15
ا· م· كرو

مقـــدمـــة

الطبعـــة الثـــانيـــة

كانت الطبعة الاولى ، من هذا الكتاب (1958) أول عمـل تونسي ينشـر ـ بشكله المعروف ـ عن خير الدين • ولئن لم يكن من نوع الدراسات المطولة المتخصصة والمفصلة عن حياته واعماله وافكاره ؛ فانه كان بمثابة المنبه للقراء وللباحثين الى مكانة هذه الشخصية الفذة ، في تاريخنـا القـومي والسياسي والفكري على السواء •

ولفت الانظار لمثل هذه الموضوعات ، و « تحريك السواكن » نحو امثال هذه الشخصيات ، هو عمل له اهميته الخاصة وله ابعاده وفضائله •

ولست ادعي ان في هذه العجالة عن « خير الدين التونسي » اكثر من صور خاطفة وملامح محدودة من حياته واصلاحاته ونضاله المشرف •

ومع ذلك ، استطيع أن ازعم بان مثل هذه البدايات ضرورية ـ واساسية احيانا ـ في مثل تلك الظروف الفكرية والنفسيـة التي كنـا نعيشها عقـب الاستقلال مباشرة ، والتي ورثناها عن عهد طويل من الاستعمار والتغريب والتفكيك المتعمد لكل عناصر ذاتنا القومية وشخصيتنا الحضارية ، والثقافيـة بوجه خاص •

لقد اوضحنا ، فى مقدمة الطبعة الاولى ، بعض حالات المسخ والتغريب وفرنسة العقول ، وما خلفته ـ فى كثيرين ـ من رواسب عميقة كثيفة ، ما زال عبؤها الثقيل يعوق خطانا نحو استقلال حقيقى فى التفكير والتعليم والادب •

وبعد : فهذه الطبعة الجديدة تمتاز عن الاولى بـ :

1 ـ تنقيحات اساسية فى الدراسة

2 ـ زيادة كبيرة فى المختارات من مقدمة (اقوم المسالك •• » حتى استغرقت اهم ما يمكن اعتباره خلاصة افكار خير الدين فى الاصلاح •

3 ـ اضافة مختارات مطولة من مذكراته ، تتصل كلها بحياته فى تونس وتتعلق بالاصلاحات التى قام بها ، وتتضمن دفاعه عن نفسه تجاه تلك الانتقادات التى استهدف لها فى حياته ، بل وما زال دعاة « الموضوعية » يستهدفونه بها •

ان القسم الذى اخترناه من مذكرات خير الدين ، فى غاية الاهمية ؛ اذ هو يعيننا على فهم ادق واعمق لجهوده العظيمة لانقاذ تونس من براثن التنافس الاجنبى ومن الغزو العسكرى الذى كان مبيتا لها • كما انه يلقى اضواء كاشفة حول اصلاحاته العديدة وحول سياسته الداخلية بصفة عامة والخارجية بصفة خاصة ، وهو بالتالى يقنع كل باحث نزيه بان خير الدين كان اعظم الرجالات فى تونس واكثرهم غيرة عنها واخلاصا لها خلال القرن الماضى كله •

وبالاضافة الى ذلك فان مذكراته تمكننا من الاطلاع الجيد على تفكير خيرالدين ومواقفه تجاه كثير من القضايا التى يدور حولها النقاش والجدل ••• تلك القضايا التى نجح اعداؤه بالآستانة وخارجها ـ يوم كان صدرا أعظم بها ـ فى اثارة الشكوك والشبهات حول نزاهته وحسن تصرفه ، اثناء توليه منصب

الوزير الاكبر بتونس (1873 ـ 1877) ، فكانت مآربهم منها واضحة ومساعيهم بها فاشلة ٠

والغريب ان دعاة البحث (العلمى) اليوم يرددونها مـن جديد ، وكأنهـم يكتشفونها اكتشافا ، وهم فيها مقلدون ، وعن منهج الحق والعلم حائدون

لقد كان اولى بهؤلاء ان يقارنوا مزاياه ومناقبه وخصـاله بالقيـاس الى من عاصره من الوزراء ورجال الحكم الذين خانوا الامانة وضيعوا مصالح الشعـب وعاثوا فيها فسادا ، ومهدوا الطريـق امام التدخل الاجنبـى اولا ثم الاحتلال الاستعمارى ثانيا ٠

وكم وددت لو تنبه احد من هؤلاء الباحثين « الجدد » الى دور خير الدين كرائد اول للاصلاح فى العالم الاسلامى كله ، وكيف كان اسبق فى دعوته للاصلاح وتبشيره به من السيد جمال الدين الافغانى (1839 ـ 1897) والشيخ محمد عبده (1849 ـ 1905) ٠

فحينما نشر خير الدين كتابه « اقوم المسالك فى معرفة احوال الممالـك » متضمنا المقدمة الطويلة التى شرح فيها افكاره الاصلاحية ، وناقش المسلمين المترددين والخائفين من الاصلاح ـ وخاصة المعارضين للاصلاح فى كل مـا ينبغى اخذه من العلوم الحديثة والصناعات الاوروبية ـ حينما نشر خير الدين افكاره تلك فى كتابه المذكور سنة 1867 كان جمال الدين غير معروف تماما ، اذ لم يظهر له تأثير حقيقى واسع النطاق الا سنة 1884 عندما استقر فى باريس واسس مع الشيخ محمد عبده جريدة « العـروة الوثقى » فهـى التى حملـت صيحاتهما الاولى ، وآرائهما الواضحة فى الدعوة للاصلاح ٠٠ اى سبعة عشر عاما بعد ظهور كتاب خير الدين وانتشاره فى الافاق وترجمته الى الفرنسيـة والانكليزية والتركية ٠

نعم ! ان صوت جمال الدين كان أقوى وتأثير عبده كان اعمق ، ولكن ذلك يعود الى ان خير الدين كان منصرفا الى السياسة والحكم ، بينما كان الرجلان بعده منقطعين تماما الى الدعوة للاصلاح بالفكر والعلم ٠

انها ـ على كل حال ـ ملاحظة اسجلها ، وفكرة اطرحها للدرس والبحث

آ ٠ م ٠ كــرو
(تونس 30 / 8 / 1973)

حيـاة خيـر الـدين

1810 ــ 1887

طفولة مجهولة

خيرالدين رائد من رواد النهضة العربية المنسيين ، ورجل عظيم من رجالات تونس المجهولين. الذين لم ينالوا ما يجب لهم من دراسة وبحث . ومن تقدير وتمجيد واهتمام .

كان فذا من افذاذنا في القرن التاسع عشر ، ناضل عن مصير شعبنا نضالا باسلا ، وقاوم دسائس اوربا واحابيلها الممهدة للاستعمار ، ونادى بالاصلاح الحقيقي ، ثم نفذه بنفسه في ظروف مليئة بالاشواك والمصاعب ، مغمورة بالمكائد والحسد والتهديم ، ولكنه صمد جبارا ، وعمل مخلصا وكافح صابرا ، وبذل كل مواهبه لوطن شب فيه وتعلم فأحبه بصدق وتعلق به عن وجد وتجرد ونزاهة .

ان هذا الرجل المكافح العظيم هو الملقب ب(أبو النهضة التونسية الاول) "خير الدين التونسي" . الذى ولد وعاش وكافح ومات فى القرن الماضى ، فكان خير مثال يصور بالحقيقة والفعل المعنى الذى اشار له الشاعر ابن الوردى في لاميته المشهورة بقوله :

لا تقل اصلي وفصلي يا فتى
انما أصل الفتى ماقد حصل
قد يسود المرء من غير أب
وبحسن السبك قد ينفى الزغل

أجل !! لقد صعد خيرالدين وسما الى على المراتب.. وليس له اصل ولا فصل بل ليس له اب معروف .. ولا يحسبن احد انه لقيط بما تثيره هذه الكلمة من معاني الاشمئزاز والاسى والحزن . بل هو ضحية من ضحايا الهمجية البشرية ، وصورة من مأساة الانسانية كلها في كفاحها المر الطويل من أجل حق الانسان في الحياة والحرية والكرامة لحقيقية .

ان أصل خيرالدين قد يكون عائلة مآجدة ، او أسرة ذات حسب ونسب ، ولكن ما قيمة ذلك امام المجد العظيم الذى صنعه خيرالدين بنفسه معتمدا فيه فقط على مواهبه وكفاحه ونزاهته وضميره ؟ واذن فلسنا بحاجة الى معرفة اصل خيرالدين لان مجده يغنينا عنه ، كما اننا لانستطيع الوصول اليه لان التاريخ — وهو كتاب الحياة الخالد — لم يعرف عنه شيئا .. بل ان خيرالدين نفسه لم يعرف اى شيء عن اهله ولا حتى عن ابيه .. فنشا مجهول الاب لايذكر من طفولته الا احداثا اليمة وصورا كئيبة لخصها المرحوم الدكتور احمد امين بقوله :

ـ"عقل ـ خيرالدين ـ فراى نفسه في الاستانة في اسرة غير أسرته ، في بيت تحسين بك ، نقيب الاشراف ، ليست سيدة البيت أما له ، ولاتحسين بك ابا ، ولاابناء البيت أخوة ، وانما

يسمع همسا انه عبد مملوك على معنى غامض لم يفهمه اولا ، اين ولد ؟ واين أسرته ، وكيف اتى لهذا البيت" (1) .

كل هذا .. لايعرف عنه شيئا .. ولكنه يعرف او يذكر انه "راى تحسين بك يوما يعرضه على رجل يفحصه كما تفحص السلعة ، ويصعد فيه نظره ويصوب ، ويختبره من فرقه الى قدمه ، ثم يدفع مالا في يد تحسين ، وينتقل هو الى يده ، وهذا يركبه مركبا يبحر به الى تونس ، واذا به في بيت جديد ، هو بيت احمد باشا باى تونس ." (2) (1837 — 1855).

أما مايذكره التاريخ عن طفولة خيرالدين (3) فهو انه عبد شركسي الاصل خطفه النخاسون في ظروف غامضة ... وفي سن مبكرة ، ثم باعوه في اسواق العبيد في عاصمة الخلافة العثمانية ، وهو لايزال طفلا لايفهم شيئا من حقائق الحياة والناس ، وفي اوائل القرن الماضي كان الانسان يباع في الاسواق كما تباع الحيوانات او البضائع الأخرى .. وكان المصدر الرئيسي لهذه التجارة الحقيرة . هو القرصنة والغزو والاختطاف وجميع وسائل اللصوصية . فكان كل انسان — خاصة الاطفال والنساء — عرضة بين لحظة واخرى لان يسرق او يخطف

---

(1) زعماء الاصلاح ص 146

(2) نفس المصدر ص 146

(3) عرف خير الدين — في كهولته — اصله واسرته ، وهو أنه من قبيلة اباظة الشركسية بالقوقاز .

ثم ينقل الى بلاد بعيدة ليباع بثمن بخس . فيصبح عبدا رقيقا يفعل به ويتصرف فيه مالكه كما يتصرف في اثاث بيته وفي ملابسه . ولقد كان من حسن حظ القرن العشرين واجياله كلها ، ان اتفقت دول العالم في مطلع القرن الماضي على تحريم استرقاق الانسان وتحريم ما ينجر عن ذلك من بيع او شراء او عبودية . واعتق العبيد ونالوا حريتهم في معظم انحاء العالم المتحضر.

ولكن هذا التحريم قد جاء بعد ان فقد خيرالدين حريته وفقد اصله واهله .. واصبح عبدا مملوكا لاحمد باى تونس ، الذى وان امتلك خيرالدين الا انه كان – مثل غالبية امراء المسلمين – يعامل الرقيق معاملة رحيمة ، ولولا تلك المعاملة لما وصل خيرالدين الى ما وصل اليه من مجد وعظمة .

ويحق لنا هنا ان نعتز بان تونس قد كانت في مقدمة الدول التي ابطلت الاسترقاق ، وحرمت استعباد الانسان لاخيه الانسان ، فقد اصدر احمد باى الاول ، الذي امتلك خيرالدين ورباه ، أصدر امرا سنة 1262 / 1845 بابطال بيع الرقيق بالقطر التونسي ، وبغلق سوق العبيد (الذى يعرف اليوم باسم سوق البركة) وحجر على جميع التونسيين تجارة الرقيق ، بل اكثر من ذلك اصدر أمرا آخر يقضي بعتق جميع العبيد وإعادة حريتهم اليهم.

ويعتبـر هذا البـاى مؤسس الدولة التونسية الحديثة ، فهو اول من اتخذ لهـا مقومـات الدولـة العصـريـة ، وخـاصة العَلَــم التـونسي ، وجعـل تونس تنفصل عمليـا عن تبعية الخـلافـة التـركيـة التى كـانت تستعبد البـلاد العـربيـة وتستنـزف اموالهـا ودمـاء شعـوبهـا. الا ان سيـاسـة هذا البـاى في الاصـلاح الداخلي كـانت ذات اخطـاء كثيـرة أهمهـا الانبهـار باروبـا والانصياع الى نصـائح قنـاصلهـا الـكاذبة. ولـكن تـربيـته ورعـايته لخيرالدين هي في رأيي اكبـر حسنـات هذا البـاى ، فقد اعتنى به اعتنـاء خـاصا فعلمـه وثقفـه بثقـافة عصره "فحفظ مـا استطـاع من القرآن وتوسع في العلوم الشـرعية واللغوية" واقبل على المطـالعة خاصة كتب التـاريخ ، ويظهـر انه اعجب **بمقدمة** ابن خلدون وتاثـر بهـا في تفـكيـره وحيـاتـه (1) .

فـــى المدرســـة الحربيـــة

وعندمـا اسس احمد بـاشا باى الاول المدرسة العسـكرية لتخريج ضباط للجيش التونسي ، سنة 1256هـ 1840م انخـرط فيهـا خيـرالدين واصبح يحسن اللغـات العـربية والفـرنسية والتركية ، وهذا مـا سـاعده على ان يسـاهم في تدعيم المـدرسة العسـكرية

---

(1) يلاحظ انه يشير اليها ويستشهد بآراء صاحبها كثيرا فى القسم الاول من كتابه .

حتى وهو طالب فيها ، فاسهم مع بعض زملائه وباشراف اساتذته في تعريب عدد من الكتب العسكرية من اللغات التركية والاوروبية ، ويقول المؤرخ الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب : إن هذه الكتب المترجمة تجاوزت الأربعين ، وانها لا تزال مبعثرة في مسوداتها (1) .

في الجيش التونسي

وعندما تخرج خيرالدين عين ضابطا لفرقة من الفرسان ثم رقي بعد تلك الى ان اصبح في سنة 1849/1266 امير لواء الخيالة.

وهكذا استفاد خيرالدين من تربيته المدنية ثقافة واسعة واطلاعا كبيرا ، واقترابا من الشعب وشعورا بآلامه وآماله. كما استفاد من تربيته الحربية "حب النظام ، وقوة الحزم ، وسرعة البت ، وصلابة الرأى" كما لخص ذلك الدكتور احمد امين في كتابه عن زعماء الاصلاح في القرن الماضي .

والى هنا تنتهي المرحلة الاولى من حياة خيرالدين التونسي . وهي مرحلة سلبية تنحصر في نشأته وتعلمه ، وفي اعداده للحياة اعدادا مدنيا وعسكريا. وهناك مرحلتان اخريان زاخرتان بالكفاح والمجد ...

---

(1) خلاصة تاريخ تونس ، ط 3 ، ص 166 ـ 167 .

عصر خير الدين

عندما اصبح خيرالدين امير لواء الخيالة عام 1266/ 1849 ، كان يومئذ في حوالي الاربعين من عمره . ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية من حياته في تونس ، وهي مرحلة شائكة وخطيرة ، ولكنها ايضا مرحلة ايجابية وفعالة : مليئة بالاحداث الجسام وبالمجد والكفاح .

ولكي نفهم هذه المرحلة بوضوح يجب ان نعرف بإيجاز حالة تونس حكومة وشعبا في منتصف القرن الماضي ، وبذلك نستطيع ان نتصور الظروف العصيبة والاجواء المتعكرة التى عمل فيها خيرالدين بصبر ونبل وببراعة فائقة وصمود هائل.

حالة تونس

كانت تونس في هذا الوقت تابعة للخلافة العثمانية تبعية اسمية فقط ذات صبغة دينية محضة ، اما من الناحية الفعلية فقد كانت تونس مستقلة سياسيا استقلالا تاما . وقد دعم هذا الاستقلال ووضع مقوماته الخارجية والداخلية أحمد باشا باى الاول الذى تولى عرش تونس سنة 1253 هـ الموافقة لسنة 1837 م . فقد وجه هذا الباى همه الاول الى الجيش فزاد في عدد

افـراده وفي تجهيـزه وتقويته بمختلف الوسـائل ، وفتـح مدرسـة (بـاردو) الحـربيـة لتخريج الضـباط،وكون نواة اسطول بحرى حربي وزاد عدد جنود الجيش التونسي في عهده عن ثلاثين الف، موزعـة علىمختلف انواع الاسلحـة من مشـاة وخيـالـة ومدفعيـة وبحـريـة. وقد بلغتْ قطع الاسطول الحربي التونسي في عهده اثنتى عشرة بـاخـرة وبـارجـة كبـرى . كمـا أنفق أمـوالا طـائلة على إنشـاء ميـنـاء حربي للاسطول ، ومصنع للسفن ، ومعـامل للسلاح ، هذا فضلا عن عدد كبيـر من المنشآت العسـكريـة الاخرى مثل : الثـكـنـات ، والقـلاع ، ومـراكـز الصيـانـة .

وقد ارهقت مصاريف هذه الاستعدادات العسـكـريـة مـاليـة تونس المحدودة يومئذ (1) وكـان المنتظـران يؤدي هذا الاصـلاح والقوة العسـكريـة الى حمايـة البلاد من المعتدين الذين كـانوا يومئذ يتـربصون ببـلادنـا ويهيّئون الظـروف للـوثوب عليها واستعمـارهـا ، ولـكن هذا لم يقع بسبب سيـاستي الارتجال والاستغـلال اللتيـن كـانتـا طـابع واسلوب البـايـات والوزراء في القرن التـاسع عشـر ؛ ذلك ان هذا البـاى بالـرغم من انه كـان يعمل جاهدا للانفصال عن تـركيـا ، ويستمع الى نصائحَ قناصل الدول الاوروبيـة المشجّعـة لـه على الانفصال ، وبـالـرغم من ان المـوقف كـان يقتضي الـكثيـر من الحذر والاحتيـاط تجـاه المناورات والنصائح الاوربيـة من جهة ، وتجـاه مـا قد تقوم

(1) اتحاف أهل الزمان ج 4 ص 25 ـ 26 .

به تركيا نحو أعماله الانفصالية من جهة ثانية .. بالرغم من كل ذلك فان هذا الباي نفسه ارسل أكثر من نصف جيشه الى حرب القرم التى وقعت بين روسيا وتركيا سنة 1854 ليموت في سبيل دولة يريد ان ينفصل عنها ؟ ويزداد الامر سوءاً حين نعلم ان الجزائر الشقيقة كانت في نفس الوقت تدافع عن حريتها ضد الغزو الفرنسي الذى كان قد وضع اقدامه وثبّتها في قلب المغرب العربي . وكان من الواضح ان تونس ستكون الفريسة الثانية بعد الجزائر ، فكان الصواب يقتضي مساعدة الجزائر عسكريا لدفع خطر الاستعمار عن البلدين ، او على الاقل الاحتفاظ بقوة عسكرية نظامية وشعبية لحماية البلاد ، ولكن الباى ارسل قواته العسكرية لتحمي بلدا اجنبيا وتموت في سبيله . وهكذا لم تستفد تونس من هذا الاستعداد العسكرى سوى العجز الدائم في ميزانيتها والضرائب المرهقة تسلط عليها كل يوم ، ومع ذلك فقد استمر هذا الباى في مشاريعه الجنونية التى لم تنفع الشعب شيئا ، فأنشأ مدينة كاملة سماها "المحمدية" ، وأنفق عليها اموالا طائلة (1) . فازداد فقر الشعب وازدادت الحكومة شرها في امتصاص دمه ؛ فزادت في الضرائب ، واحتكرت بيع كثير من المواد الضرورية كالملح والصابون . وسلمت

(1) بنى فيها قصورا حاول ان يحاكى بها قصور فرساى بباريس ، وكان قد شاهدها عام 1846 خلال زيارته الرسمية لها ، فخلبته وأثارت رغبة جنونية فى نفسه لبناء مثلها . وكان قد شرع فى البناء منذ 1843 .

الشعب كله الى عصابة من المجرمين ليجمعوا لها المال بكل وسيلة ؛ فكانوا يجمعون للحكومة نصيبا ولأنفسهم أنصبة ، فاغتنوا هم وجاع الشعب ، وكان على كرسي الوزارة رجل لا ضمير له يدعى مصطفى خزنه دار ، كان يغري الباى بالانفاق على بذخه ومشاريعه المختلفة ؛ النافع منها والضار على حد سواء ، فكان الباى دائما تحت رحمة هذا الوزير ، يحتاج الى المال فيأتيه به من دم الشعب وعرقه وحرمانه . وكان الشعب التونسي يعاني ظلمات الانحطاط والجمود والركود التى انحدر اليهما عبر عصور الظلام التى مرت بالبلاد العربية كلها طيلة ستة قرون كاملة ، فلم يكن هناك تقدم علمي ولا اجتماعي ولااقتصادى وكان الاجانب من ابناء اوربا خاصة فرنسا وايطاليا ، قد بدأوا يدخلون البلاد ويستعمرونها تجاريا واقتصاديا ، وبدأ بذلك التنافس الاوربي على احتلال تونس (2) .

هذه كانت حالة تونس عندما بدأ خيرالدين مرحلة حياته الثانية ، وهي مرحلة كفاحه السياسي والاجتماعي وسط هذا الخراب المالي المتراكم ، والمظالم المتلاحقة على الشعب .

ومن الواضح هنا ، انه لم يكن امام خيرالدين سوى

---

(2) انظر تفاصيل المنافسة والمناورات فى كتاب « تونس وفرنسا فى القرن التاسع عشر » للفقيد عبد المجيد طاهر المطوى المنشور فى سلسلة « كتاب البعث » رقم 17 تونس 1957 .

ميدانين للعمل : ميدان الشعب المنهوك الجاهل ، المستسلم الى جلاديه ، استسلام العناصر غير العاقلة الى مشيئة الليالي والايام كما يقول جبران ، وميدان الحكومة التى خلا ضميرها من من الشرف والنزاهة وعقلها من التبصر والرشد ، وخزينتها من المال الحلال المشروع . فماذا فعل خيرالدين ، وفي أي ميدان كافح ؟

انه لمما يزيد في اكبار خيرالدين وعظمته الانسانية ، انه اختار الكفاح في الميدانين معا ، ولكن بتبصر وحكمة وبصبر وتؤدة ، اذ لم يكن من السهل على اى كان في ذلك العهد ان يكافح ولو سلبيا بالكلام في اى ميدان ، فضلا عن الميدانين معا . ولكن خيرالدين كافح في الميدانين ، ولم يحجم عن الكفاح حتى بعد ان تنبه الظالمون له ، بل وأحاطوا به فقد شعر الوزير خزنه دار ، بخطر خيرالدين ، وبما فيه من عقل رشيد وضمير شريف ، فسعى حتى زوجه بابنته ، وكان هذا الزواج قيدا مرهقا لأقوال وأعمال خيرالدين ، كما ان الباى كان واقعا تحت رحمة خزنه دار لاحتياجه اليه ، فلم يكن من السهل على خيرالدين ان يسدي النصح الى الباى ، ولا ان يقاوم علنا سياسة خزنه دار التي كانت تسير بالبلاد الي الخراب الشامل والكارثة المحققة .. وهكذا لم يكن امام خيرالدين الا التريث والعمل ببطء حتى يأتي الظرف المناسب .. وقد جاء هذا الظرف المناسب عندما أرسل الى باريس ليقاضي محمود بن عياد الذى كان

اليد اليمنى للوزير خزنه دار ، لا في العمل الصالح والخير لهذا الشعب وانما في الشر والظلم والاستغلال .

قضيـــة محمـــود بـن عيـــاد

من هو محمـود بن عيـاد ؟

كـان محمـود بن عياد جلاد الشعب التونسي ورئيس جامعي أموال المواطنيـن بالنهب والاستبداد والارهـاق حتى جمع عشرات المـلايين من فرنك ذلك العصر ، فلما أحس بان البقرة لم تعد تدر اللبن، وان الشعب قد أخذ يئن من الظلم، ويوشك هذا الانين ان يتحول الى زئير ثم الى ثورة جارفة ، عندمـا أحس بغضب الشعب وسخطـه في كـل مكـان ، سـافر الى فرنسـا بحجـة التداوى ، بعد ان هرّب اليهـا الاموال التى جمعهـا باسمه وباسم خزنه دار . وفى فرنسا فقد هذا الرجل كل معنى للشرف والعقـل السديد ، فتجنس بالجنسيـة الفـرنسية حتى لا تنـاله يد القوانين التونسيـة . ثم اقـام دعوى على حـكومة الباى يطالبهـا بـاموال بلغت ستين مليون فرنك ثمن المشتريـات التى كـان يقدمها الجلاد للـحـكومـة التونسيـة . ويزيد في خطورة القضيـة والموقف ان حـكومـة تـونس كـانت مصابـة بالشلـل المـالي والعقلي ايضـا فقـد كـان على رأسهـا خزنه دار وهـو الشـريك الاول لمحمـود ابن عيـاد . كمـا ان هذا الاخير قد استطـال على حـكومـة البـاى بهيبة فـرنسا . وسلطـانهـا بعد ان اصبح فـرنسيا وهنـا بـدأ حصـاد

الخراب المالي والاداري الذي زرعه خزنه دار يعطي ثمارا قاتلة مهلكة . وأدرك الباي ان الموقف يحتاج الى كفاءات اخرى ليست من نوع خزنه دار ، بل كفاءات تقوم على الاخلاص والنزاهة ، والذكاء والحصافة ، ولم يكن في حاشية الباي فرد تتوفّر فيه تلك الصفات الكريمة سوى خيرالدين . فاتّجه اليه الباي ليذهب الى باريس ، ويخاصم ابن عياد ويبين فساد زعمه ويثبت ان عليه –لا له– ديونا تطالبه بها حكومة تونس" (1) ، ويقول احمد امين عن هذه القضية انها "كانت قضية هامة لو حكم فيها لابن عياد لوقعت تونس في الافلاس، وزاد من خطرها ماكان تحت يد ابن عياد هذا من مكاتبات ومستندات رسمية دبرها هذا الماكر تدبيرا محكما."(2)

وهكذا بدأ خيرالدين حياته السياسية في موقف شائك جدا ، وفي ظروف كلها أخطار وظلام .. ولكن مواهبه أقوى وأعظم .

عقليـــة جـــديـــدة

كانت بداية المرحلة الثانية من حياة خير الدين التونسي هي ذهابه للدفاع عن حقوق الدولة التونسية في القضية التي رفعها ضدها محمود بن عياد والتى استمرت حوالي اربع سنوات ، وقد اقام خيرالدين كل هذه المدة بباريس لمتابعة

---

(1) زعماء الاصلاح ص 154 .

(2) نفس المصدر والصفحة .

سير القضية ، وأخيراً انتهت بتحكيم لجنة يرأسها الامبراطور نابليون الثالث فقضت بحكم أعاد لتونس مبلغ 24 مليون فرنك من ابن عياد .

وهكذا لم تذهب هذه السنوات سدى ، بل ان خيرالدين قد أفاد منها اطلاعا واسعا على مظاهر التقدم الاوربي ومكنته من ان يدرس عن كثب اسباب رقي الحضارة الاوربية وازدهار العلم والصناعة في فرنسا .

وعندما رجع خيرالدين الى تونس لم يرجع لها بربح القضية المادى فحسب ، بل رجع ايضا بربح معنوى كبير اذ عاد يحمل معه افكارا حية وإرادة قوية ، وتصميما مركزا حول ضرورة النهوض بالبلاد الى مستوى الحياة في اوربا .

وقبل ان تتبلور افكارخيرالدين في نفسه وتتحول الى برامج واضحة . أسندت اليه وزارة الحربية سنة 1273 / 1857 بعد ان رقي الى رتبة فريق ، وهي تساوى اليوم رتبة مرشال وكان هذا في عهد محمد باى الثاني 1855—1859 . وقد ظل خيرالدين وزيرا للحربية الى سنة 1862 ، وقد استطاع خلال هذه المدة ان يقوم باصلاحات كثيرة ، في شؤون وزارته . فنظمها من الناحية الادارية على الاساليب الاوربية ، كما اصلح ميناء حلق الوادى ، وأنشا مصنعا للسفن ، ووسع الطرق ونظمها.

واهم حدث جرى في هذا الطور من حياة خيرالدين هو

قيام مجلس دستورى في تونس بعد صدور عهد الامان الذى هو أول دستور أعلن في العالم العربي كله . ففي سنة 1857 تم اعلان هذا الدستور ، اما المجلس التشريعي المنبثق عنه ، فقد تأخر تكونه الى سنة 1860 وكان خيرالدين من أشد المخلصين العاملين حماسة ومساهمة في ايجاد هذا المجلس النيابي ، وذلك اعتقادا منه بان هذا المجلس سيكون بمثابة الدعامة الاولى لنشر العدالة والطمأنينة بين المواطنين ، ولحماية البلاد من كل العثرات والأخطار . وان هذا هو الطريق الوحيد لردع البايات عن الاستبداد والفساد .

وبعد افتتاح المجلس أصبح خيرالدين نائبا لرئيسه مصطفى صاحب الطابع الذى كان هو الآخر من محبذي الاصلاح والعاملين لأجله ، وبعد أشهر مات الوزير مصطفى صاحب الطابع فأصبح خيرالدين الرئيس الفعلي للمجلس . غير ان هذا لم يدم طويلا ، فقد اصطدم خيرالدين بعقبات كثيرة، واحس المناروات تدبر له وللشعب ، واخذت المشاكل الناشئة عن دسائس القناصل الاوربية ، تتفاقم وتتشابك يوما بعد يوم . وكان زواجه من ابنة الوزير خزنه دار عقبة كاداء في سبيله حتى عجز خيرالدين عن اتخاذ موقف حاسم في وسط هذه المعركة الدائرة بين مصير الشعب ومصير الاشخاص المتربصين به .

ويزيد من حرج الموقف أمام خيرالدين ، ان الشعب كان قد تعلق به تعلقا كبيرا ، وأناط به كل آماله ، فلم يكن من

السهل على خيرالدين وهو رجل يحتفظ بضميره دائما ، لم يكن من السهل عليه ان يتنكر لشعب أحبه ووضع فيه آماله وثقته ، كما انه لم يعد يستطيع ان يفعل شيئانافعا ، ولا هو بقادر على ان يجابه العقبات بما ينبغي ان يجابهها به. فاختار موقفا وسطا.. فيه كثير من الحذر والاحتياط .. وها هو يتحدث بنفسه عن ظروفه الصعبة،وعن هذا الموقف بالذات فيقول:

"لقد حاولت أن أسير بالامور فى طريق العدالة والنزاهة والاخلاص،فذهب كل مسعاي سدى، ولم أشأ ان اخدع وطني الذى تبناني بتمسكي بالمناصب. فقدمت استقالتى سنة 1279 هـ 1862م من رئاسة المجلس ومن وزارة الحربية وعدت الى حياتي الخاصة".

وهكذا تخلى خيرالدين عن الحياة العامة رسمية وشبه رسمية ، وانصرف الى الفكر والتأمل ، يبحث في عمق ويفتش عن الاسباب الحقيقة التى جعلت المسلمين ينحدرون الى ذلك الدرك من الانحطاط والظلم . ومن البعد الشاسع عن الاسلام والعلم والحضارة . ودام هذا الانصراف تسع سنوات حفلت فيها حياته وشخصيته بعناصر ذهنية مثمرة وبنتاج عقلي عظيم (1) .

(1) يلاحظ هنا الشبه بين انفراد خير الدين الذى ألف فيه كتابا عن أسباب التأخر عند المسلمين والتقدم فى أوروبا .. وبين انفراد ابن خلدون فى قلعة بنى سلامة التى انتج فيه مقدمته المشهورة .

وافـاد خيـرالدين خلال هذه المدة مـاقـام به من جولات ورحلات كثيـرة بين الاقطـار الاوربية في مهمات رسميـة . زار خلالهـا المـانيـا وفـرنسـا وايطـاليـا وانـكلتـرا والنمسا والسويد وهولندة والدانمـارك وبلجيـكـا وتـركيـا . واستطـاع ان يـكّـون بهـا فـكرة كـاملة عن مظـاهر التقـدم والتفوق الحضارى في أروبـا ، بل وان يتعمق اسبـابـه ، واسبـاب تـاخر المسلمين ، وانحلالهـم في عصـره ، كمـا تمـكن من معـرفـة الـكثيـر من حقائق السياسة الاوربية تجـاه بلادنا خاصة والعالم العـربي بوجه عـام . وقـد أثـمـرت جميـع هـذه العنـاصر في ذهنـه أفـكـارا جليلـة واتجـاهـات عصريـة نيـرة ، شرحهـا كلهـا في كتـابه **"اقوم المسـالك في معرفـة احوال الممـالك"** وهـو كتـاب قيـم بافـكاره وروحه الاصلاحية من جهة ، وبـدوافعه واهدافه النبيلة من جهـه ثـانيـة .

وخلال هذه السنوات التسع التى انقطع فيهـا خيـرالدين عن الوظـائف الحـكومية المبـاشرة حدثت تطورات كبيـرة في الـبلاد ، وفي علاقاتهـا بالدول الاوربيـة .

فقد أكثرت تـونس من القروض الاجنبية حتى تـراكمت عليهـا الديون وعجزت عن دفعهـا ، وبذلك بدأ التدخل الاجنبى في شؤون تـونس الداخليـة بحجة حمـاية أمـوال الدائنين . كماساءت الحالة الاقتصادية نتيجة لـكثرة الضرائب ، وأدى تعكر الحالة المالية وتدخل اصحـاب الدين الى وضع مـالية الدولة تحت رقـابة لجنة

مالية اجنبية وهنا اعاد التاريخ نفسه . فالتجأ المسؤولون الى خيرالدين مرة أخرى ، ليخفف بمواهبه ونزاهته المشاكل والكوارث التي تتابعت على مالية البلاد. ولا يتسع المجال هنا الى ذكر جميع الاحداث والاطوار والظروف التى عاد فيها خيرالدين الى العمل الاصلاحي من جديد . ويكفي ان نقول : أن خيرالدين قد قبل بالحاح الباى عليه ان يكون رئيس اللجنة المالية المكونة من اعضاء فرنسيين وايطاليين وانكليز، والتي كانت مهمتها حماية الديون الاجنبية وضمان الدفوعات المترتبة عنها .

لقد واجه خيرالدين مشاكل كثيرة ذات خطورة بالغة ، لكن مواهبه وإخلاصه كانا أكبر منها.. وهكذا أمكنه ان يتغلب على كل الصعوبات الداخلية والاجنبية وان ينقذ البلاد من كوارث عديدة .

ورغم تعدد الجبهات التى كان على خيرالدين ان يكافح فيها فقد قام خيرالدين باصلاحات واسعة النطاق لانقاذ البلاد من التدهور الذى اصاب حياتها التجارية والزراعية والصناعية ، فوجّه عنايته الكبرى الى الحالة الاقتصادية لاعتقاده انها الدعامة الاولى لكل نهضة وكل تقدم .

ولم يمض عامان حتى ادرك الباى محمد الصادق . وأحس الناس جميعا . أن خيرالدين هو الرجل الوحيد الذى

يستطيع ان يحمل على عـاتقه كافة المسؤوليـات دون ان يلحق بالبـلاد أى ضرر او خطر. وهـكذا أسند البـاى الى خيرالدين منصب رئيس الحكومـة بعد عزل الوزير خزنه دار . وهـكذا كـانت سنة 1873 بداية المرحلة الثالثة والاخيرة من حياة خيرالدين في تونس.

وفي هذه المـرحلة التى دامت اربع سنـوات انجز خيـرالدين أعمـالا جبـارة ووضـع اسسـا قويـة للـرقي بالشعـب التونسى الى مستـوى العصـر والحضـارة الاوربيـة . ولايمـكن ان نحصي كـافـة اصـلاحـاته وتـأسيسـاته ؛ لذلك سنـكتفى بذكـر بعض منهـا لبيـان عظمـة هذا الـرجل ، ومقدار مـا أسداه لبـلادنـا من خدمـات وجهـود .

الحـــاكـــم المصلـــح

كـان خيـرالدين في اعمـالـه وانجـازاتـه المختلفـة انمـا يطبق افـكـاره التى ضمنهـا مقدمة كتـابـه « **اقـوم المسـالك في معـرفة احوال الممـالـك** » .

امـا اصـلاحـات خيـرالدين فهى كثيـرة جـدا وشاملـة لجميـع ميـادين الحيـاة ودواليب الادارة ، واذا كـان احصـاؤهـا جميعـا أمـرا غيـر ممـكن ، فـاننـا نستطيع ان نستعـرض منهـا الانجـازات التـاليـة :

في ميـدان السيـاسـة : دعم خيـرالدين مـركـز تونس

الدولي وزاد في قوة الصلات التى تربط تونس بالخلافة العثمانية كدرع يقيها .. ووضع حدا للتدخل الاجنبي الذى كان قد بدأ يتسرب مع اللجنة المالية . ثم ضبط ديون الاجانب وحدد فائضها ودفوعاتها . وضرب على ايدى المتدخلين فى شؤون تونس من القناصل واعضاء اللجنة المالية ..

فى ميدان الاقتصاد : احيا الاراضى المهملة ، وأعاد توزيع الارض على الفلاحين ، كما خفض الضرائب الى ادنى حد ممكن ، مع تحسين وتشجيع الزراعة ، وزيادة المزروع من الارض ، من مساحة 60 الف هكتار الى مليون هكتار . وكذلك نشط الصناعات المختلفة ، ووضع نظاما جمركيا قويا ، كما حد من الواردات وزاد من الصادرات ، وانشاء المخافر الجمركية لمنع التهريب ، وسن عددا من القوانين الضابطة لشؤون المالية والادارة .

في ميدان التنظيم الادري : واسس المحاكم المدنية واصلح نظام المحاكم الشرعية ، وضبط جميع امور الدولة في تراتيب وسجلات رسمية منظمة ، كما اصلح الطرقات واحدث البلديات وعمم في العاصمة التنوير والنظافة في الشوارع . كذلك اسس جمعية الاوقاف والخزانة العامة لحفظ اوراق الدولة ووثائقها ، كما اصلح نظام السجون ، والمطبعة التونسية ، وشجع الادباء والعلماء على الانتاج ونشره

في جريدة الرائد التونسي التي هي ثالث جريدة عربية رسمية صدرت في العالم العربي (I) .

في ميدان التعليم اعتنى خيرالدين بالتعليم فأصلح ما أمكن اصلاحه من احواله في جامع الزيتونة ، ثم رأى ان ذلك لايفي بحاجة البلاد ، فاسس المدرسة الصادقية سنة 1877 لتكون بمثابة الجسر الفكري الذى تدخل منه وتقام عليه في بلادنا الحضارة الحديثة بعلومها وفنونها ونظامها وجميع ألوانها ومظاهرها ولتكون – مع تأسيساته الاخرى –الاركان القوية لنهضة البلاد وحمايتها من اخطار الانحطاط المنحدر مع الماضي، ومن اخطار الاستعمار الذى قد ياتي مع المستقبل .

ورغم كل ذلك فان الاوساط الخاصة وكذلكالدول الاوروبية التي كانت تتربص لاحتلال تونس – كما يقول المؤرخون لخيرالدين–لم يرق لهم شيء مما حققه هذا المصلح ، فمازالت دسائسهم تعمل ضده حتى وجد نفسه في حالة تشبه حالته سنة 1862 ، عندما استقال من وزارة الحربية وانقطع الى حياته وافكاره يدوّنها . وهكذا اضطر الى ان يستقيل من من منصبه كوزير اول سنة 1877/1294 .

(I) كانت «الوقائع المصرية» هى أول صحيفة عربية ظهرت فى العالم العربى • وقد صدرت فى القاهرة كجريدة رسمية للحكومة المصرية عام 1828 • اما الثانية فكانت جريدة « المبشر » وقد صدرت فى الجزائر عام 1840 • وكان صدور الرائد التونسى عام 1861 •

وبعد عدة سفرات الى اوربا للاستشفاء استقر في تركيا حيث رحب به السلطان عبدالحميد الثاني ترحيبا فائقا ، فأغدق عليه الرتب والعطايا وأولاه عناية كبيرة لما كان يعلمه عنه من سجايا وفضائل قلّ توفرها في معاصريه .

الصدر الأعظم

وعندما استقر في عاصمة الخلافة كانت السلطنة العثمانية تعاني اخطارا مهلكة ، وظروفا عصيبة ، فجنح السلطان عبد الحميد الى خيرالدين يستشيره ويستفيد من آرائه ومواهبه فأدهشه ذكاء خيرالدين وسداد تفكيره ونضجه السياسي والاداري ، مما زاد من مكانته في نفس السلطان حتى أولاه ثقته فاختاره ليشغل اول منصب في البلاد بعد العرش ، وهكذا أصبح خيرالدين بعد عام او اقل الصدر الاعظم في السلطنة العثمانية كلها ، اى رئيس الوزراء ، ورغم كثرة الاخطار المحدقة بالسلطنة يومئذ ، وجسامة المسؤوليات التى كان على خيرالدين ان يواجهها ويتحملها بنفسه فانه لم يتأخر كعادته في اقتحام المصاعب والصمود امام الاهوال . وقد أمكنه فعلا ان يخفف من الاخطار التى كانت تزحف على السلطنة ، ولكن خيرالدين لم يلبث حتى شعر بانه لايستطيع ان يعيد الصحة والعافية "للرجل المريض" لان جسم السلطنة العثمانية كان قد أصبح هرما ومتعفنا ، وهكذا استقال خيرالدين من اكبر منصب في عصره ، ولما ينقض عام واحد على قبوله له .

والاستقالة من المنصب مهما كان كبيرا ، لايتأخر عنها خيرالدين ، عندما يشعر بان الدسائس والحساد والمفسدين قد تكاثروا عليه . بينما ضميره يحثه دائما على الاخلاص لمبادى النزاهة والاصلاح والوقوف في وجه الفساد والمفسدين مهما عظم شأنهم وكانت مكانتهم .

ومنذ سنة 1878 ، انصرف خيرالدين انصرافا تاما عن الشؤون العامة فانطوى على نفسه ليدون حياته الحافلة بالكفاح النبيل والامجاد الرائعة ، وليصفي معها ذكرياته الطويلة ، وآراءه وتجاربه .

وقد دامت هذه الفترة مدة اثنى عشر عاما ، انتهت بانتهائها حياته عام 1308 هجريا الموافقة لسنة 1889 ميلادية وكان عمره يوم موته حوالي 79 سنة وبموته انتهت حياة رجل عظيم ومفكر جسور استوطن بلادنا قهرا وجبرا ، ولكنه احبها مختارا ومخلصا ، فكان خير مواطن فيها وأبر ابن بها خلال القرن التاسع عشر كله .

الكاتب المفكر

قبل ان نترك خيرالدين بين احضان التاريخ ليقول فيه كلمته مرة أخرى ، ينبغي ان نشير في ايجاز كبير الى كتابه القيم الذى وضعه بين فترة استقالته من وزاراة الحربية عام 1862 ورجوعه للحكم رئيسا للوزراء عام 1873 ذلك

الكتاب الذى احتوى زبدة آراء خيرالدين في الاصلاح وخلاصة انطباعاته ومعلوماته عن الدول الاوربية التى زارها في حياته .

وقد طبع الكتاب في تونس سنة 1867 في مطبعة الدولة التونسية ، وقوبل بكثير من الاهتمام والتقريظ من أدباء ذلك العصر ومفكريه المناصرين للاصلاح .

وينقسم الكتاب الذى سماه "**اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك**" الى مقدمة وكتابين . وقد حاول ان يجاري به **مقدمة** ابن خلدون و**تاريخه** ، لكن الافكار والاسلوب كذلك الموضوعات والاهداف ، كانت مختلفة كل الاختلاف في كتابي الرجلين العظيمين . واذا كان خيرالدين قد تأثر بآراء ابن خلدون فيما يتصل بالتاريخ وفلسفته وتقييمه النقدي لأوضاع المجتمع ، فانه قد تأثر بمطالعاته الفرنسية . وتجاربه وملاحظاته الشخصية فيما يتصل بموضوعات الحكم والدولة والمجتمع والاصلاح والتقدم والانحطاط الى آخر ما عالجه في مقدمة كتابه العظيم .

ومما لاشك فيه ان خيرالدين حين ألف كتابه ونشره بين الناس كان يرمي الى شيء واحد هو اقناع رجال الدين والسياسة في عصره بضرورة الاصلاح الشامل والنهوض العاجل الى مستوى الحياة والحضارة في اوربا.

ويدلنا على هذه الحقيقة ان خيرالدين قد تحدث في مقدمة كتابه التي بلغت أكثر من 80 صفحة ، عن موضوعات الاصلاح التي كان رجال الدين والحكم يعارضونها في ايامه ، محاولا ان يقنعهم بالحجة والبرهان الديني والعقلي بأن الاقتداء بأوربا ليس كفرا ، وليس مضرا بالمسلمين بل على العكس من ذلك فان ما عند اوربا هو عماد الحياة والتقدم الذى حثنا عليه الاسلام وتقدم به المسلمون في شامخ حضارتهم وسالف ايامهم .

اما القسم الثاني من الكتاب فقد جعله خيرالدين بشكل كتابين ، قسّم الاول الى عشرين بابا ، وتحدث فيه عن عشرين دولة اوربية من دول عصره ، واصفا جميع مناحي حياتها ، خاصة نظمها المالية والسياسية والادارية ، وكذلك مبلغ ما عندها من قوة عسكرية برية وبحرية ، محاولا بوصفه لها ان يعطي الى قارئه صورة كاملة عن مدى التقدم والرقي اللذين وصلت اليهما اوربا في جميع نواحي الحياة والنشاط البشرى . اما الكتاب الثاني فقد قسمه الى ستة ابواب تحدث فيها جميعا عن جغرافية القارات الخمس من النواحي الطبيعية والسياسية . وكان موجزا في حديثه في هذا الكتاب حتى انه لم يتجاوز به 10 صفحات . بينما بلغت صفحات الكتاب الاول حوالي 350 صفحة .

ومعلومات الكتاب الجغرافية والسياسية ، من البابين المذكورين لم تعد اليوم تنفع البحث الحديث بشيء يذكر لأن تطورات الاحداث والحياة قد تجاوزتها . أما القسم الاول الذى سماه خيرالدين "المقدمة" على غرار ما فعله ابن خلدون فى تاريخه الشهير ، فهو الذى له اهمية في دلالته عن عمق تفكير خيرالدين من جهة ، وفي تفهم الاحوال والفكر اللذين كانا سائدين في عصره من جهة ثانية .

ومما يوضح لنا مقدار الخطورة فى آراء خيرالدين بالنسبة لعصره -على الاقل- ان القسم الاول من كتابه قد ترجم الى الفرنسية بباريس بعد اقل من عام من طبع كتابه بتونس (1) وان دل هذا على شيء فانما يدل اولا على القيمة الكبيرة التي يتصف بها كتاب خيرالدين ، وثانيا الاهتمام الخاص الذى كان موجها الى شخصية خيرالدين وآرائه في تلك الظروف . حيث كانت فرنسا تعد العدة للوثوب على تونس واحتلالها ، وكان من الواضح جدا أن أمثال خيرالدين هم العقبات الكبرى في سبيل ما يريده الاستعمار من اهداف في هذه البلاد .

ويكفي ان نلقي نظرة قصيرة على بعض آراء خيرالدين ، ونستعرض نتفا منها هنا ، لكي ندرك مواهب خيرالدين الفذة واخلاصه العظيم وحبه العميق للمسلمين عامة ، ولتونس وشعبها بوجه خاص . وها هو يتحدث عن السبب الذى دفعه

---

(1) كما ترجم وطبع بالتركية والفارسية والانكليزية .

الى وضع كتابه، ويصف الغاية التى يرجوها منه ، فيقول :

"ان الباعث الاصلي (لجمع هذا التاليف) امران آيلان الى مقصد واحد : احدهما اغراء ذوى الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة الى حسن حال الامة الاسلامية وتنمية اسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان ، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات ، ونفي اسباب البطالة .. واساس جميع ذلك حسن الامارة المتولد منه الامن ، المتولد منه الامل ، المتولد منه اتقان العمل ، المشاهد في الممالك الاورباوية بالعيان وليس بعده بيان . ثانيهما (اي ثاني الاسباب التى دفعته الى تاليف كتابه) تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا ، بمجرد ما انتقش في عقولهم من ان جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي ان يهجر .. حتى انهم يشددون الانكار على من يستحسن شيئا منها" .

ثم يقول خيرالدين جوابا على هؤلاء الذين كانوا في عصره –ومازال بعضهم الى اليوم –ينكرون الاخذ بأسباب الحضارة الاوربية بحجة ان اصحابها ليسوا مسلمين، يجيب خيرالدين هؤلاء بقوله :

"وهذا الانكار – على اطلاقه – خطأ محض . فان

الامـر اذا كـان صادرا من غيـرنـا وكـان صوابـا .. فلا وجـه لانـكـاره واهمـالـه بل الواجب الحرص على استعمـالـه . وكل متمسك بدينـه ، وان كـان يـرى غيـره ضـالا في ديـانتـه، فذلك لايمنعـه من الاقتداء بـه فيمـا يستحسن في نفسـه من اعمـالـه المتعلقة بالمصـالح الدنيـاويـة ، كمـا تفعلـه الامـة الافـرنجيـه". ثم يقـول خيـرالدين : "والحـكمـة ضـالـة المؤمن يـأخذهـا حيث وجدهـا"

من هذه الـكـلمـات القصيـرة التى حدثنـا فيهـا خيـرالدين عن هدفـه من هذا الـكتـاب نـلاحظ :

اولا ـ أن خيـرالدين كـان يصطـدم في آرائـه الاصـلاحيـة بـآراء بعض رجـال الدين في عصـره ، وخـاصة بـالتفـكيـر الديني الذى كـان العامـة لايفقهـون منـه غيـر الجمـود والاستسلام لأوضـاعهـم مهمـا كـانت قـاتلـة لهـم اقتصـاديـا او عسـكريـا او سيـاسيـا او علميـا او اجتمـاعيـا . وان خيـرالدين قد جـابه هؤلاء بـان الدين لايمنع الاخذ بـاسبـاب التقدم والحضارة التى صنعهـا غيـر المسلميـن ، بل ان الاسـلام يحث على ذلك لقول الرسول : "الحـكمـة ضـالـة المؤمن يـاخذهـا حيث وجدهـا" وقد وجدنـاهـا اليوم عند اوربـا فوجب اخذهـا . كمـا وجدهـا أجدادنـا بالامس عند اليونـان ـ وهم من اهل اوربـا ـ فـأخذوهـا منهـم ، ولم يعترض احد يـومئذ من رجـال الدين على ذلك مع أن الاسـلام كـان في أزهـى ايام شبـابـه .

ثـانيـا ـ صراحتـه واخلاصه في الحديث عن الغـايـة التى يـرمي اليها من كتـابـه . والملاحظ هنـا ان خيـرالدين قد ذكـر في تلك الـكلمـات القصيـرة اركـان التقـدم والـرقي الحقيقي فقد ذكـر العلـوم والصنـاعـات والـزراعـة ، والقضـاء على البطـالة التي يتضـح من حديثـه عنهـا انهـا كـانت مشـكلـة اسـاسيـة في عصره في جميـع انحـاء العـالـم العـربي ، وخـاصـة بتـونس . وممـايـؤكـد صدق خيـرالدين في آرائـه ، انـه عنـدمـا اصبح وزيـرا اكبـر لتـونس نفـذهـا جميعـا في حـدود الامكـانيـات التى كـانت ميسـرة لـه يومئـذ .

ويستمـر خيـرالدين في منـاقشـة المنكريـن والمعـارضين للاصـلاح العميـق الشـامل ، فيندد بعقليتهـم العجيبة التى تسمح لهم بـان ينتفعـوا بـالصنـاعـات والمنتـوجـات الاوربيـة ، ولـكنهم يرفضـون ـ باسم الدين ـ العلوم والافـكار الاوربية التى لولاهـا لمـا وصلتاروبـا الى مـا وصلـت اليـه من تقـدم في الصنـاعة والانتـاج ، يقـول خيـرالديـن :

«إذا تـأملنـا في حـالـة هـؤلاء المنـكـرين لمـا يستحسن من اعمـال الافرنج نجدهم يمتنعـون من مجاراتهم فيما ينفـع من التنظيمات ونتـائجهـا ولايمتنعـون منها فيما يضرهم (1) ، وذلك أنـا نراهم يتنافسـون في الملابس وأثـاث المساكن ونحوهـا من

(1) أى اقتصاديا ، باعتمادهـم عـلى الواردات • والاستهـلاك دون الانتاج •

الضروريات وكذا الاسلحة وسائر اللوازم الحربية ، والحال ان جميع ذلك من اعمال الافرنج ..»

ثم يذكر خيرالدين خطر هذه العقليات والتصرفات على استقلال البلاد وعلى حياتها الاقتصادية . وكيف يبقى هذا الاسلوب والتفكير في الحياة ، تبقى البلاد في حالة سيئة جدا من التأخر والانهيار الشامل .. فيقول :

"ولايخفى ما يلحق الامة بذلك من الشين والخلل في العمران وفي السياسة . اما الشين فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات الدال على تأخر الامة في المعارف .. واما خلل العمران فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتائجها الذى هو اصل مهمّ من اصول المكاسب، ومصداق ذلك مانشاهده من ان صاحب الغنم منا ومستولد الحرير وزارع القطن مثلا يقتحم تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ما ينتجه عمله للافرنجي (اى مواد خام) بثمن يسير ثم يشتريه منه بعد اصطناعه في مدة يسيرة باضعاف ما باعه به» .

ولاشك ان القارىء قد ادرك باعجاب مدى الرشد والوعي اللذين كانا طابع تفكير خير الدين وآرائه . فهو يدرك خطربقاء بلادنا بلا صناعات تبيع المواد الخام وتستوردها بضائع مصنوعة باثمان باهظة.

ولايكتفي خيرالدين بذكر هذه الحقائق بل هو يوضح

بعد ذلك مايسببه التأخر الصناعي من خلل في الحياة الاقتصادية عن طريق زيادة الواردات على الصادرات . وما يؤدّي اليه ذلك من ضرر بالاستقلال السياسي للبلاد . بل وتعريضه للزوال او التدخل الاجنبي . يقول خيرالدين :

"وبالجملة فليس لنا الآن من نتائج ارضنا الا قيمة موادها المجردة دون التطويرات العملية التى هي منشأ توفر الرغبات ثم إذا نظرنا الى مجموع ما يخرج من المملكة وقايسناه بما يدخلها فان وجدناهما متقاربين خف الضرر ، واما اذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة. واما الخلل السياسي فان احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها".

يذكر خيرالدين ان الدولة التى لاتعتمد على نفسها في حياتها الاقتصادية ولاتقتدي بما تصل اليه الدول الاخرى خاصة القريبة منها ، من تقدم وتفوق علمي واقتصادى وعسكرى.. الدولة التى لاتفعل ذلك تكون غنيمة لدولة اخرى تغزوها وتتحكم فيها .

ومما يزيد آراء خيرالدين قيمة واهمية ، انها كانت تتصل بصميم حياة شعبنا في عصره وفي كل عصر ، وهذا ما يعطيها صفة التقدير والاعجاب الدائمين .. ونشيرهنا الى ان خير الدين حين اصبح رئيسا للحكومة التونسية طبق معظم آرائه ، واستطاع رغم قصر مدته ان يخطو

ببلادنا خطوات هائلة الى الامام . ولكي تتضح اتجاهات خير الدين في الاصلاح – وقبل ان اترك القارىء مع مقدمته الرائدة – أختم هذه الملاحظات عن آرائه الاصلاحية باستعراض نماذج من موضوعات مقدمة كتابه القيم .. فقد تحدث عن الظلم المخرب للعمران ، وعن ضرورة وجود قوانين ضابطة للادارات الحكومية ، لأن استقامة الوزير بدون ذلك لاتكفي ، كذلك تحدث عن عواقب الاستبداد والعمل بالراى الواحد ، وضرورة النظام الشوري اى البرلماني ، ثم تحدث عن أسباب تقدم العرب عندما اعتمدوا اتحاد الكلمة وأقاموا حكمهم على العدل والعمران والعلوم ، ثم كيف انهاروا وتقهقروا عندما انقسمت كلمتهم وتنافسوا من اجل المصالح الشخصية ومالوا الى الاستبداد . وتحدث عن نهضة اوربا على اساس الحرية والعدالة والنظام الدستورى وذكر فائدة النظم الاوربية الاجتماعية والاقتصادية ، كالشركات والمصانع والبنوك وغيرها . وختم المقدمة بالحديث عن تفويض الحكم الى رجل واحد بشرط العدل وذلك عند الضرورة فقط . وهذا ما تم لخير الدين عندما اصبح الوزير الاول لتونس فقد انصرف الى الاصلاح وأهمل الشورى التى كان من قبل رئيسا لمجلسها . الا ان ظروفه كانت تقتضي ذلك لما كانت عليه البلاد من اخطار داخلية وخارجية ، وقد تمكن خير الدين بفضل مواهبه ونزاهته من وضع دعائم وطيدة لنهضة حقيقية شاملة ؛ مازالت تونس الى اليوم تتفيأ ظلالها وتجني ثمارها .

نصـــوص مختـــارة

مـن مقـــدمـــة

أقـــوم المســـالــك

فى معـــرفـــة أحـــوال الممـــالـــك



سبحان من جعل من نتائج العدل العمران ، وفضّل بالعقل نوع الانسان ، وأهّله به لحسن التدبير ومراتب العرفان ، وأمره بالتّعاون على البرّ دون الإثم والعدوان . أحمده وهو المحمود في كلّ آن ، بكلّ لسان . وأصلّي على عبده سيّدنا محمّد المرسل بالكتاب والميزان ، المنزّل عليه (إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان) .وعلى آله وأصحابه حفاظ شريعته اللائقة بكلّ زمان . الدائرة أحكامها على مركزي الإيمان والأمان .

امّا بعد ، فيقول جامع هذه الورقات ، أرشده الله إلى أقوم الطّرقات: إنّي بعد أن تامّلت تأمّلا طويلا. في أسباب تقدّم الأممّ وتأخّرها جيلا فجيلا ، مستندا في ذلك لما أمكن تصفّحه من التواريخ الإسلاميّة والإفرنجيّة . مع ما حرّره المؤلّفون من الفريقين فيما كانت عليه وآلت إليه الأمّة الاسلاميّة ، وما سيؤول إليه أمرها في المستقبل ، بمقتضى الشّواهد التي قضت التّجربة بأن تقبل ؛ التجأتُ إلى

الجـزم بمـا لاأظن عـاقـلا من رجـال الإسلام ينـاقضـه ، أوينهض لـه دليـل يعـارضـه ؛ من أنّا إذا اعتبـرنـا تسابق الأمم في ميادين التمدّن ، وتحزب عـزائمهم عـلى فعـل مـا هو أعـود نفعـا وأعـون ، لا يتهيّأ لنـا أن نميّز مـا يليـق بنـا ، عـلى قـاعدة محكمة البنـا ، الا بمعرفـة أحـوال من ليس من حزبنـا ، لاسيّمـا من حفّ بنـا وحلّ بقربنا . ثمّ إذا اعتبـرنـا مـا حدث في هذه الازمـان ، من الوسـائط التى قـربت تـواصل الأبـدان والأذهـان لم نتو قّف أن نتـصوّر الدنيـا بصـورة بـلدة متّحدة ، تسكنهـا امم متعـددة ، حـاجـة بعضـهـم لبعض متـأكّدة ؛ وكلّ منهـم ، وإن كان في مسـاعيـه الخصـوصيّة غـريم نفسه ، فهـو بـالنّظـر إلى مـا ينجـرّ بهـا من الفـوائد العمـوميّة مطلـوب لسـائـر بني جنسـه . فمـن لا حظ هذين الاعتبـارين ، اللذين لاتبقـى المشـاهدة في صحتهمـا أدنى رَيْن . وكان بمقتضى ديـانتـه من الدّارين أنّ الشـريعـة الاسـلاميـة كـافلـة بمصـالح الدّارَين . ضرورة أنّ التتظيم الدّنيـوى أسـاس متيـن ، لاستقـامـة نظـام الدّين ، يسوءه أن يـرى بعض علمـاء الاسـلام ، المـوكـول لأمـانتهم مـراعـاة أحـوال الـوقت في تنـزيل الاحكـام ، معـرضيـن عن استـكشـاف الـحـوادث الـدّاخليـة ، وأذهـانهـم عن معـرفـة الخـارجيـة خليّة . ولايخفى أنّ ذلك من أعظـم العـوائق ، عن معـرفـة مـا يجب اعتباره علـى الـوجه اللائـق . أفيحسن من أُسـاة الأمّة الجـهـل بـأمراضهـا ، اوصرف الهمـّة الى اقتنـاء جـواهـر العلـوم مجـرّدة عن أعـراضها ؟ كمـا انّه يسوءنـا الجهـل بذلك

من بعض رجال السياسة . والتجاهل من بعضهم رغبة في إطلاق الرّئاسة . فلذلك هجس ببالي ، ماأستذكيت لأجله ذبالي ، من انّي لوجمعت بعض ما استنتجته منذ سنين باعمال الفكر والرّوية ، مع ما شاهدته أثناء أسفارى للبلدان الأورباوية ، التى أرسلني إلى بعض دولها الفخام الطود الرّفيع الأسمى ، والكهف المنيع الأحمى ، جناب ولي النّعم ، وزكي الاخلاق والشيّم ، من لم تزل عزائمه كاسمه صادقة ، وألسنة الأيّام بالثّناء عليه ناطقة : لم يخل سعيى من فائدة ، خصوصا إذا صادف أفئدة على حماية بيضة الاسلام متعاضدة .وأهمّ تلك الفوائد عندي ، التى هي في هذا التأليف مناط قصدي : تذكير العلماء الاعلام ، بما يعينهم على معرفة ما يجب اعتباره من حوادث الأيام، وإيقاظ الغافلين من رجال السيّاسة وسائر الخواص والعوام ، ببيان ما ينبغى أن تكون عليه التصرّفات الدّاخلية والخارجية ، وذكرما تتأكّد معرفته من أحوال الأمم الافرنجيّة خصوصا مَن لهم بنا مزيد اختلاط ، وشديد علقة وارتباط . مع ما أولعوا به من صرف الهمم ، إلى استيعاب أحوال سائر الامم ، واستسهالهم ذلك بطي مسافات الكرة الذى الحق شاسعها بالأمم . فجمعت ماتيسّر بعون الله من مستحدثاتهم المتعلقة بسياستْي الاقتصاد والتنظيم ، مع الإشارة إلى ماكانوا عليه في العهد القديم . وبيان الوسائل التى ترقوا بها في سياسة العباد ، إلى

الغاية القصوى من عمران البلاد . كما أشرت الى ماكانت عليه أمّة الاسلام المشهود لها حتّى من مؤرخي أوربا الأعيان ، بسابقيّة التقدّم في مضماري العرفان والعمران؛ وقت نفوذ الشّريعة في أحوالها ، ونسج سائر التصرّفات بمنوالها . والغرض من ذكر الوسائل التى أوصلت الممالك الأورباوية إلى ماهي عليه من المنعّة والسلطة الدنيوية ، أن نتخيّر منها ما يكون بحالنا لائقا ، ولنصوص شريعتنا مساعدا وموافقا . عسى أن نسترجع منه ما أُخِذ من أيدينا ، ونخرج باستعماله من ورطات التّفريط الموجود فينا، إلى غيرذلك مما تتشوّف إليه نفس النّاظر في هذا الموضوع ، المحتوي من الملاحظات النّقلية والعقليّة على ما نشره بطي فصوله يضوع . وسميته : **«أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك»** مرتّبا له على مقدمة وكتابين يشتمل كل منهما على أبواب . وبهداية الله نستوضح مناهج الرّشد والصواب . والجري في هذا المجال وإن كان فوق طاقتي ، لكن إغضاء الفضلاء مأمون في جنب فاقتي . وصدق النية ، كافل إن شاء الله تعالى ببلوغ الأمنية .

المقدّمة

لما كان السّبب الحامل على الشيء متقدّما عليه طبعا، ناسب أن نقدّمه وضعا، ولم نكتف بالإيماء في الخطبة إلى ما دعانا لجمع هذا التأليف، بل رأينا من المهمّ أن نعود إلى ايضاحه هنا، ونبني عليه ما أردنا إيراده في المقدّمة، فنقول :

إن الباعث الأصلي على ذلك أمران آيلان إلى مقصد واحد : أحدهما إغراء ذوي الغيرة والحزم ، من رجال السيّاسة والعلم ، بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصّلة إلى حسن حال الأمة الاسلاميّة ، وتنمية أسباب تمدّنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان ، وتمهيد طرق الثّروة من الزّراعة والتّجارة ، وترويج سائر الصّناعات ، ونفي أسباب البطالة . وأساس جميع ذلك حسن الإمارة ، المتولّد منه الأمن ، المتولّد منه الأمل ، المتولّد منه اتقان العمل ، المشاهد في الممالك الأورباوية بالعيان ، وليس بعده بيان .

ثانيهما : تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين

عن تماديهم في الاعراض عمّا يُحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرّد ما انتقش في عقولهم من أنّ جميع ما عليه غير المسلم من السير والتّراتيب ينبغي أن يهجر وتآليفهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر ؛ حتى أنهم يشدّدون الانكار على من يستحسن شيئا منها ؟ وهذا على اطلاقه خطأ محض ، فأن الأمر إذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للادلّة ، لاسيّما إذا كنّا عليه وأُخذ من أيدينا فلا وجه لإنكاره واهماله ، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله . وكلّ متمسّك بدينه ، وإن كان يرى غيره ضالاً فيديانته ، فذلك لايمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلّقة بالمصالح الدنيويّة كما تفعله الأمّة الافرنجية ؛ فانّهم مازالوا يقتدون بغيرهم في كلّ ما يرونه حسنا من أعماله حتّى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو مشاهد . وشأن النّاقد البصير تمييز الحق بمسبار النّظر في الشّيء المعروض عليه قولا كان اوفعلا ؛ فان وجده صوابا قبله واتبعه سواء كان صاحبه من أهل الحقّ أو من غيرهم ، فليس بالرّجال يُعرف الحق ، بل بالحقّ تُعرف الرّجال . والحكمة ضالّة المؤمن يأخذها حيث وجدها .

ولما أشار سلمان الفارسي ــ رضي الله عنه ــ على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأن عادة الفُرْس أن يطوّقوا

مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتقاء من هجومه عليهم ، أخذ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلم ـ برأيه وحفر خندقا للمدينة في غزوة الاحزاب ، عمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين . وقال سيّدنا علي كرّم الله وجهه : «لاتنظر الى من قال ، وانظر الى ما قاله» .

واذا ساغ للسلف الصالح أخذ مثل المنطق من غير أهل ملتهم وترجمته من لغة اليونان لما رأوه من الآلات النافعة ، حتى قال الغزالي : «من لامعرفة له بالمنطق لايوثق بعلمه» . فأي مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التي نرى أنفسنا محتاجين إليها غاية الاحتياج في دفع المكائد وجلب الفوائد .

وفي «سنن المهتدين» للعلامة الشيخ المواق المالكي ما نصه :

انّ ما نهينا عنه من أعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى شرعنا ، أمّا ما فعلوه على وفق النّدب أو الإيجاب أو الإباحة فانّا لانتركه لأجل تعاطيهم إيّاه ، لانّ الشرع لم ينه عن التشبّه بمن يفعل ما أذن الله فيه .

وفي حاشية **الدرّ المختار** للعلاّمة الشيّخ محمد بن عابدين الحنفي ما نصّه : إنّ صورة المشابهة فيما تعلّق به صلاح العباد لاتضرّ . على انّا إذا تأمّلنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من أعمال الأفرنج نجدهم يمتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التّنظيمات ونتائجها ، ولايمتنعون منها في ما

يضرهم ، وذلك انّا نراهم يتنافسون في الملابس وأثاث المساكن ونحوها من الضّروريات ، وكذا الأسلحة وسائر اللّوازم الحربيّة ، والحال أنّ جميع ذلك من أعمال الافرنج. ولايخفى ما يلحق الأمّة بذلك من الشين والخلل في العمران وفي السياسة .

أمّا الشين فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات الدّال على تأخّر الأمّة في المعارف .

وأمّا خلل العمران فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتائجها الذي هو أصل مهمّ من أصول المكاسب ، ومصداق ذلك ما نشاهده من أنّ صاحب الغنم منّا ومستولد الحرير وزارع القطن مثلا يقتحم تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ما ينتجه عمله للافرنجي بثمن يسير ثمّ يشتريه منه بعد اصطناعه في مدّة يسيرة بأضعاف ما باعه به . وبالجملة فليس لنا الآن من نتائج أرضنا إلاّ قيمة موادّها المجرّدة دون التّطويرات العمليّة التى هي منشأ توفّر الرّغبات منّا ومن غيرنا ، ثمّ إذا نظرنا إلى مجموع ما يخرج من المملكة وقايسناه بما يدخلها فإن وجدناهما متقاربين خفّ الضرر ، وامّا إذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لامحالة .

وأمّا الخلل السيّاسي فان احتياج المملكة لغيرها مانع

لاستقلالها ووهن لقوتها ، لاسيّما إذا كان متعلّق الاحتياج الضّروريات الحربية التي لو يتيسر شراؤها زمن الصلح لا يتيسّر ذلك وقت الحرب ولو بأضعاف القيمة ، ولا سبب لما ذكرناه إلاّتقدّم الأفرنج في المعارف النّاتجة عن التّنظيمات المؤسّسة على العدل والحرّية ، فكيف يسوغ للعاقل حرمان نفسه ممّا هو مستحسن في ذاته ويستسهل الامتناع عمّا به قوام نفعه بمجرد أوهام خيالية واحتياط في غير محلّه ؟

وممّا يحسن سوقه هنا قول بعض المؤلفين من الأورباويين في السيّاسات الحربيّة : إنّ الممالك التى لاتنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من الآلات الحربيّة والتّراتيب العسكريّة يوشك أن تكون غنيمة لهم ولو بعد حين . وخصّ التّراتيب الحربيّة لأنّها موضوع كتابه وإلاّ فالواجب مجاراة الجار في كلّ ما هو مظنّة لتقدّمه سواء كان من الأمور العسكريّة أو من غيرها .

وممّا يؤيّد ما قرّرناه قوله -صلى الله عليه وسلم- لعاصم بن ثابت من خديث : «من قاتل فليقاتل كما يقاتل» . ويوضّح معناه ما تضمّنته وصيّة الصديق لخالد بن الوليد -رضي الله عنهما- حين بعثه لقتال المرتديّن ، فقال : «ياخالد عليك بتقوى الله والرّفق بمن معك .. »الى أن قال «والخوف عند أهل اليمامة فإذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر ثمّ إذا لاقيت

القوم فقاتلهم بالسّلاح الذى يقاتلونك به : السّهم للسّهم ، والرمح للرّمح ، والسّيف للسيف» .

قلت : ولو أدرك هذا الزّمان لأبدل ذلك بمدفع الشّشخان ومكحلة الابرة والسّفينة المدرّعة ونحوها من المخترعات التي تتوقّف عليها المقاومة ولا يحصل بدونها الاستعداد الواجب شرعا الذي يستلزم معرفة قوّة المستعدّ له والسعي في تهيئة مثلها أو خير منها ومعرفة الأسباب المحصّلة له .

وبناء على ذلك يقال هنا هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار اليه بدون تقدّم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا ؟ وهل يتيسّر ذلك التقدّم بدون إجراء تنظيمات سياسيّة تناسب التّنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التأسس على دعامتيْ العدل والحريّة اللّذين هما أصلان في شريعتنا ؟ ولايخفى أنّهما ملاك القوّة والاستقامة في جميع الممالك .

ولما كان الغرض من هذا الكتاب لايتمّ إلاّ ببيان أحوال البلدان الاورباوية ، لزم أن نثني العنان إليه مدرجين في أثنائه ما يناسب الأمّة الاسلاميّة . فنقول :

إن الحالة الرّاهنة في ممالك أوربا لم تكن ثابتة لها من قديم الزّمان لأنهّا كانت بعد هجوم البرابرة الشماليين وسقوط الدّولة الرّومانية سنة أربعمائة وستّ

وسبعين مسيحية على أفظع حال من التوحّش والاعتداء والجور ، آخذة في حركة السّقوط التي هي أسرع من الصّعود طبعا . ولم تزل في ربقة الرقّ لملوكها وكبراء الأمم الجائرة المسمّين بالنوبليس إلى زمن ولاية الأُمبراطور "شارلمان" ملك فرنسا ومعظم ممالك أوربا سنة سبعمائة وثمان وستين ، فبذل غاية جهده في إصلاح حال النّاس بسعْيه في تنمية المعارف وغيرها ، ثمّ بعد وفاته رجعت أوربّا إلى غياهب جهالتها وظلم ولاتها ، كمّا يأتي تفصيله . ولايتوهّم أنّ أهلها وصلوا إلى ما وصلوا إليه بمزيد خصب أو اعتدال في أقاليمهم ، إذ قد يوجد في أقسام الكرة ما هو مثلها أو أحسن ، ولا أن ذلك من آثار ديانتهم إذ الديانة النّصرانية ولو كانت تحثّ على إجراء العدل والمساواة لدى الحكم لكنّها لاتتداخل في التصرّفات السياسّية لأنهّا تأسست على التبتّل والزّهد في الدنيا ، حتّى أنّ عيسى ـ عليه السلام ـ كان ينهى أصحابه عن التعرّض لملوك الدنيا فيما يتعلّق بسياسة أحوالها قائلا : «إنّه ليس له ملك في هذه الدنيا ، لأنّ سلطان شريعته على الأرواح دون الاشباح» .

والخلل الواقع في ممالك "البابا" ، كبير الدّيانة النصرانية، لامتناعه من الاقتداء بالتّراتيب السياسّية المعتبرة في بقية الممالك الاوربـاوية ، دليل واضح على ماذكرناه .

وانّمـا بلغـوا تلك الغـايـات والتقـدّم في العلـوم والصنـاعـات بـالّتنظيمات المـؤسّسة على العـدل السّيـاسي ، وتسهيل طـرق الثـروة ، واستـخـراج كنـــوز الارض ، بعلـم الـزّراعـــة والتّجـارة . ومـلاك ذلـك كلّه الأمـن والعـدل اللّذان صـارا طبيعـة في بـلدانهـم ، وقـد جـرت عـادة الله في بـلاده أنّ العـدل وحسـن التّدبيـر والتـراتيب المحفـوظـة من أسبـاب نمـوّ الأمـوال والانفس والثمـرات ؛ وبضدّهـا يقـع النّقص في جميـع مـا ذكـــر ، كمـا هـو معلـوم من شـريعتنـا والتواريـخ الاسـلاميـة وغيـرهـا ؛ فقد قـال ــصلّى الله عليـه وسلمـ : «العـدل عزّ الديـن ، وبـه صـلاح السّلطـان ، وقـوة الخاصّ والعام ، وبـه أمْن الرعيّة وخيرهم». ومن أمثال الفُرْس : الملـك أسـاس ، والعـدل حـارس ، فمـا لم يـكن لـه أسـاس فمهـدوم ، ومـا لـم يـكـن لـه حـارس فضـائـع . وفـي **نصـائـح الملـوك** إنّ ولـي الأمـر يحتـاج إلـى ألـف خصلـة وكلّهـا مجمـوعـة في خصلتين إذا عمـل بهمـا كـان عـادلا ، وهمـا عمـران البـلاد وأمْن العبـاد .

ومن تصفّح الفصل الثالث من الـكتاب الأولّ من **مقـدّمـة** ابن خلـدون رأى أدلـّة نـاهضـة علـى أنّ الظلـم مؤذنٌ بخـراب العمـران كيفما كـان ، وبمـا جبلت عليـه النّفـوس البشـريّة كـان إطـلاق أيـدى الملـوك مجلبـة للظّلم علـى اختـلاف أنـواعـه كما هو واقـع اليـوم في بعض ممالك الاسـلام ، ووقـع

بممالك أوربا في تلك القرون عند استبداد ملوكها بالتصرّف المُطلق في عبيد الله من غير تقيّد بقانون عقلي لمنافاته لشهواتهم ، ولا شرعي لعدم وجوده في الدّيانة المسيحية المبنيّة على التبتّل والزّهدّ في الدنيا كما تقدّم ، وما أشرف بعض ممالكهم على الاضمحلال وسلب الاستقلال الا بسوء تصرّفهم النّاشيء عن إطلاق أيديهم مع حسن سيرة مجاوريهم إذاك من الأمّة الاسلامية ، النّاتج عن تقيّد ولاتهم بقوانين الشريعة المتعلّقة بالأمور الدّينية والدنيوية، التي من أصولها المحفوظة : إخراج العبد عن داعية هواه ، وحماية حقوق العباد سواء كانوا من اهل الاسلام او من غيرهم واعتبار المصالح المناسبة للوقت والحال ، وتقديم دَرْء المفاسد على جلب المصالح وارتكاب أخفّ الضّررين اللاّزم أحدهما ، إلى غير ذلك .

ومن أهمّ أصولها وجوب المشورة التي أمر الله بها رسوله المعصوم ــصلّى الله عليه وسلمــ مع استغنائه عنها بالوحي الالهي وبما أودع الله فيه من الكمالات ، فما ذلك الا لحكمة أن تصير سنّة واجبة على الحكام بعده . قال ابن العربي: «المشاورة أصل في الدّين، وسنّة الله في العالمين وهي حقّ على عامّة الخليقة من الرّسول إلى أقل الخلق» . ومن كلام علي رضي الله عنه: «لاصواب مع ترك المشاورة» .

ومن الأصول المجمع عليها وجوب تغير المنكر على

كلّ مسلم بالغ عالم بالمنكرات . وقال حجة الاسلام الغزالي : «الخلفاء وملوك الاسلام يحبّون الردّ عليهم ولو كانوا على المنابر. فقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو يخطب: «أيهّا النّاس من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقوّمه ، فقام له رجل ، وقال : والله لورأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا ، فقال : الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمّة من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه» . ولاشكّ أن مثل هذا الامام العادل الشديد في حماية الدّين وحقوق الخلافة لو لم ير مساغا من الشّريعة لذلك الكلام مع ما فيه من الشدّة ما حمد الله عليه ، بل كان الواجب ردّه وزجر قائله . وروى الغزالي أيضا في كتاب "الأمر بالمعروف والنهّي عن المنكر" من **الاحياء** : انّ معاوية حبس عطاء النّاس فقام إليه أبو مسلم الخولاني ، فقال : «إنّه ليس من كدك ، ولا من كدّ أبيك، ولا من كدّ امك . فقال معاوية بعد اسكان غضبه بالوضوء : صدق أبو مسلم إنّه ليس من كدّي ولا من كدّ أبى ، فهلمّوا إلى عطائكم» . قلت : لولا التّغيير المشار اليه ما استقام للبشر ملك لأنّ الوازع ضروري لبقاء النّوع الانساني ، ولو تُرِك ذلك الوازع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لم تظهر ثمرة وجوب نصبه على الأمّة لبقاء الاهمال بحاله ، فلا بدّ للوازع المذكور من وازع له يقف عنده ، إمّا شرع سماوى، أوسياسة معقولة ، وكلّ منهما لا يدافع عن حقوقه إن انتهكت ؛ فلذلك وجب على علماء الأمّة وأعيان رجالها

تغيير المنكرات، ونصب الاوروباويون المجالس وحرّروا المطابع، فالمغيّرون للمنكر في الأمّة الاسلاميّة تتّقيهم الملوك كما تتّقي ملوك أوربا المجالس وآراء العامّة الناشئة عنها وعن حريّة المطابع، ومقصود الفريقين واحد وهو الاحتساب على الدّولة لتكون سيرتها مستقيمة وان اختلفت الطرق الموصلة الى ذلك . وماذكرناه أشار إليه ابن خلدون في "فصل الامامة" من مقدّمته حيث قال : «إنّ الملك لما كان عبارة عن المجتمع الضروريّ للبشر ومقتضاه التغلّب والقهر اللذان هما من آثار القوّة الغضبية المركبة في الانسان، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائدّة عن الحقّ، مجحفةً بمن تحته من الخلق، لحمله أيّاهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من شهواته فتعسر طاعته لذلك، وتجيء العصبية المفضية الى الهرج والقتل؛ فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسيّة مفروضة، يسلّمها الكافّة، وينقادون إلى احكامها، كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم . واذا خلت الدولة عن مثل هذه السياسة لم يستقم أمرها ولا يتمّ استيلاؤها، فإذا كانت هذه القوانين مفروضةً من العقلاء وأكابر الدّولة وبصرائها كانت سياسة عقلية، وإذا كان فرضها من الله تعالى بشارع يقرّرها كانت سياسة دينية نافعة في الدنيا والآخرة» . انتهى .

قلت : والنّفع المذكور إنمّا يكون تامّا ببقائها محترمة

بصونها والذبّ عن حوزتها بمثل الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر ، كما أشرنا إليه .

هذا وإنّا لاننكر إمكان إن يوجد في الملوك من يحسن تصرّفه في المملكة بدون مشورة أهل الحلّ والعقد ويحمله حبّ الانصاف على الاستعانة بالوزير العارف النّصوح فيما يشكل عليه من المصالح ، لكن لكَوْن ذلك من النّادر الذى لايعتبر لاستناده إلى أوصاف قلمّا تجتمع في إنسان ، وعلى فرض اجتماعها ودوامها له ، تزول بزواله ، وجب علينا أنْ نجزمَ بأنّ مشاركة أهل الحلّ والعقد للملوك في كليّات السيّاسة — مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى قوانين مضبوطة مراعى فيها حال المملكة — أجلب لخيرها وأحفظ له .

وبيان ذلك أنّ حالة الملوك بمقتضى الطّبيعة البشريّة لاتخرج عن صور ثلاث لأنّ الواحد منهم ، إمّا أن يكون كامل المعرفة والمحبّة لخير الوطن ، قادرًا على إجراء المصالح بمراعاة الاصلح ؛ أو يكون كامل المعرفة ولكن له أغراض وشهوات خصوصيّة تصدّه عن مراعاة المصالح العمومية ؛ أو يكون ناقص المعرفة ضعيف المباشرة . ومثل هذه الصور الثلاث يعتبر في الوزير المباشر، ولايخفى أنّ لزوم المشورة ومسؤولية الوزراء في الصّورة الاولى لا يعطّل

كـامل المعـرفـة عن مقصـده الحسن بـل يعينـه ، حيث انّ آراء الجميـع متعاضـدة على المصلحة ، كما أنّه يسهِّل دوام الملك في عـائلته ولـوكـانـوا من مـاصدقـات الصّورتين الأخيرتيـن الـواضح فيهمـا تـأكّد المشـورة والمسؤوليـة لوجوب المعـارضة في الثـانيـة والاعـانـة في الثّالثـة ، فبذلك يستقيم حـال المملكـة ولـو كـان الـوالي أسيـر الشهـوات أوضعيـف الـراي كمـا قـال المترجم **لتـاريـخ** «ستورد مل» الانكليزى : انّ رفعـة شـأن الأمـة الانـكليـزيـة بلغت الغـايـة في مـدّة الملك «جـورج الثـالث» الذى كـان مجنونـا ، وماذاك إلاّ بمشـاركـة أهـل الحـل والعقـد ومسـؤوليـة الـوزراء لهـم» .

وقـد يسبق إلى بعض الأذهان الضعيفـة أنّ تـكليف من تحسن سيرتـه من الـوزراء ينجبـر بـه خلل الصورتين الأخيـرتيـن بحيث لايحتـاج لأهـل الحـل والعقد وهو ظـاهـر السقـوط ، لأن تقديم الـوزيـر للمباشـرة وتـأخيـره عنهـا بيد الملك ، ولايظـنّ أن الملـك يقـدم من يعـلم أنّه يخـالفـه مخـالفـة معتبـرة . وعلى فـرض تقديمـه وسيـره سيـرة مستحسنـة فـإنّا نـرى أنّ حـال الوزيـر دائـر بين أمـريـن ، لأنـّه إمّا أن يـوافق الملك وحـاشيتـه علـى أغـراضهم وشهـواتهم مرجّحـا بذلـك حظّ نفسـه . وضـرر المملـكـة في هـاتـه الحـالـة لايـكـاد يخفى ، وإمّا أن يخـالفهـم ويـأمـر من تحتـه من المتوظّفيـن بما تقتضية مصلحة البـلاد ، وحينئـذ فمن أين لـه هـذا الحق ؟ وبـأي ظهيـر يستظهـر على

تلك المخالفة ؟ خصوصا إذا لم تكن هناك شريعة نافذة تحميه من تحزّب حسّاده الذين غاية أملهم إضراره وتعطيل تصرفاته الحسنة المقللة لفوائدهم بكلّ وجه امكنهم ، ولو بتنفيذ إذنه على غير مقصوده أو تأخيره عن الوقت المناسب ليظهر الخلل ويكثر الزلل ، أو بإخفاء جليل حسناته واشهار حقير سيئاته لتغيير القلوب عليه . ومن دُعاء علي -رضي الله عنه- : «اللّهم احفظني من عدو يرعاني إن رأى منّي حسنة دسّها وإن رأى سيئة أشهرها» : ثمّ إذا خيب الله آمالهم بنجاح سعي الوزير المشار إليه في إدارة المملكة رجعوا إلى سلوك طريق الوشاية به عند الملك ، بأن يقولوا إنّه استبد عليك ولم يبق لك من الملك غير الاسم ، الى غير ذلك من أنباء الفساق التي قد تروج على العاقل قبل التبيّن ، خصوصا عند الدّول المشرقية ؛ فكيف يتيسّر للوزير والحالة ما ذكرنا أن يجري إدارةالمملكة على مواقع المصلحة مخالفا بذلك من هو الخصم والحكم ! ؟

ولما في هاته الحالة الثانيّة من العوائق يضطر الوزير المذكور إمّا إلى اختيار الحالة الأولى بالمجاراة وسلوك طرق المداراة ، وعاقبة ذلك وخيمة لعوده بالمضرّة على الوطن والملك وعليه نفسه ، لأن استعذاب الموافقة على الشهوة في الحال الناشئ عنه خراب المملكة يستعقب مرارة الندامة في المآل . واما إلى الاستعفاء من الخدمة بالمرّة

وهو وإن لم يكن واجبا لحفظ ذاته فهو واجب للتخلّص ممّا يتوّقع من الموافقة على ما يؤول الى خراب المملكة الموجب لعقاب الخالق ولوم المخلوق . إذ الانسان لو ساغ له المخاطرة بنفسه لمصلحة الوطن لايسوغ له المخاطرة بديانته وهمّته ؛ ومايجب عليه من الطّاعة للملك والمحبّة للوطن لايحصلان إلا ببذل الجهد في النصح وبجلب المصالح ودرء المفاسد إن قدر عليهما وإن لم يقدر فبالامتناع من الموافقة على ما يضر . فإن لم يفعل كانت موافقته مع العلم بما ينشأ عنها من المضرّة خيانة .

فبان بهذا أن الممالك التي لا يكون لادارتها قوانين ضابطة محفوظة برعاية أهل الحلّ والعقد ، خيرها وشرّها منحصر في ذات الملك . وبحسب اقتداره واستقامته يكون مبلغ نجاحها . ويشهد لذلك حالة الممالك الأورباوية في القرون الماضية قبل تأسيس القوانين ؛ فقد كان لهم في ذلك الوقت من الوزراء من لهم شهرة إلى الآن بتمام المعرفة والمروءة ، ومع ذلك لم يتيسّر لهم حسم مواد الخلل المنبعث من صورتي استبداد الملوك المشار اليهما ولايقال إنّ مشاركة أهل الحلّ والعقد للأمراء في كليّات السياسة تضييق لسعة نظر الامام وتصرّفه العام ، لأنّا نقول : هذا التوهّم يندفع بمطالعة **الأحكام السلطانية** للماوردي ، فإنّه قال فيه عند بيان وزارة التّفويض هي أن يستوزر الامام من يفوّض

إليه تدبيرَ الأمور برأيه وامضاءَها على اجتهاده . وليس يمتنع جواز هذه الوزارة ، فإنّ الله تعالى يقول حكاية عن نبيّه موسى -عليه السلام- : «واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري» فإذا جاز ذلك في النبوءة كان في الإمامة أجوز . انتهى .

قلت : فإذا جاز تشريك الامام لوزير التّفويض على الوجه المذكور ولم يعدّ مثل ذلك تنقيصا من تصرّفه العام، كان تشريكه لجماعة هم أهل الحلّ والعقد في كليات السياسة أجوز ؛ لأن اجتماع الآراء إلى مواقع الصّواب أقرب . ولهذا لمّا جعل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الخلافة شورى بين ستة، قال : «إن انقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الأربعة (ميلا منه إلى الاكثر لأن رأيهم إلى الصواب أقرب ، قاله السيد السند) : وان تساووا فكونوا في الحزب الذي فيه عبد الرحمان بن عوف . » على أنّ المولى سعد الدين في **شرح العقائد** لم يمنع المشاركة في تصرّفات الامامة ، وقصر منع التعّدد على منشإ الفساد حيث قال في أثناء "مبحث الامامة غير الجائز" : «هو نصب إمامين مستقلّين تجب طاعة كلّ منهما على الانفراد لما يلزم عليه من امتثال أحكام متضادة ، وأمّا في الشّورى فالكلّ بمنزلة إمام واحد» انتهى. أي لأن تعدّد الاشخاص لا ينافي وحدة الامامة التي مدارها على وحدة الأمر

والنهي ، وقد سلّم كلام السعد محشّوه كالفاضليْن عصام الدين، وعبد الحكيم، وقرّره الخيالي بقوله: وقد يجاب أيضا، وبالجملة فكلّهم معترف بصحّة كلام السّعد في نفسه . وظاهر حينئذ أحْرَوية جواز الشّورى في كليّات السياسة بالمعنى الذي أشرنا إليه إذ هي دون الشورى في سائر التّصرفات. ثمّ إنّ الشّورى على الوجه المذكور ليس فيها تضييق لدائرة خطّة الإمامة وعموم تصرفها ، باعتبار أنّ نظر أهل الحلّ والعقد بمنزلة نظر الامام ، ومراعاة كونه مظهرًا له لاستبداده بتمشيته وادارته مع ما يستبدّ به من التصّرفات التي لا تقتضي المشاركة كإجراء الخلطة السياسّية والمتجريّة مع الأجانب ، ونصب أرباب الخطط وتاخيرهم ، وتنفيذ سائر الأحكام ونحو ذلك من التصرّفات التي هي محمل وحدة الآمر .

وهاك شاهد آخر من كلام الامام ابن العربي فإنّه قال في المغارم التي تؤخذ من النّاس عند فراغ بيت المال : «إنهّا تؤخذ جهرا لا سرًّا وتنفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد . انتهى» .

ولزيادة البيان نستوضح ذلك بمثال وهو أنّ مالك البستان الكبير مثلا لايستغني في إقامته وتدبير شجره عن الاستعانة بأعوان يكون لهم مزيد معرفة بأحوال الشّجر وما يصلحه أو يفسده ، فإذا اتفق أنّ رب البستان

أراد قطع شيء من فروع شجره لما رأى في ذلك من تقوية الأصول وتنمية ثمارها فلم يوافقه أعوانه على ذلك علما منهم بمقتضى قواعد الفلاحة أنّ القطع في ذلك الوقت مما ينشأ عنه موت الشجرة من أصلها ، فتعطيل إرادة المالك في ذلك لايعدّ تضييقا لسعة نظره وعموم تصرّفه في بستانه . وقد يكون مستند الأعوان في تعطيل إرادته أمرا شرعيا كما إذا أراد بيع الثّمرة قبل بدو صلاحها مثلا ، فأشاروا عليه بأن ذلك لا يرضاه خالق الشجر الذي هو المالك الحقيقي ، فيلزمه الرجوع لرأيهم في المثالين وإلاّ توجّه اللوم إليه واستحق أن يحجر عليه . وهل يقال حينئذ : إن ذلك تضييق على رب البستان بل إن التوسعة عليه مضادة للحكمة الالهية في إيجاد العالم واستعمار ارضه ببني آدم ، هذا مع ان منتفعة البستان مختصة بربّه ؛ أمّا إذا كانت له ولغيره أو منزلته فيها كما قال عمر –رضي الله عنه– كمنزلة والي اليتيم فأحرى أن لا يتوهم أن ذلك تضييق عليه . ومعلوم أن تصرّف الامام في أحوال الرعيّة لايخرج عن دائرة المصلحة وأن القيام بمصالح الأمّة وتدبير سياستها ممّا لايتيسّر لكلّ أحد ، فتعطيل الارادة حينئذ إنّما يقع في شيء خارج عن دائرة التصرّف المسوّغ له . فتحرّر بما شرحناه اندفاع ذلك القيل وانّه لا مانع من التشريك على الوجه المذكور ، ومن لاحظ جانب المقتضى كما لاحظه الشيّخ ابن العربي

فيما قدّمناه عنه وهو ملحظنا في جميع ما أسلفناه لم يتوقف في الجزم بتعينه لاسيما في هذا الزمان الذي قل فيه العرفان وكثر الطغيان، وقد كانت وقعت بيني وبين أحد أعيان أوربا مكالمة أسهب فيها بمدح ملكهم وذكر ما له من مزيد المعرفة بأصول السياسة حتّى قال : إنّه متقيّد بطبعه وعقله عن سلوك غير منهاج الصواب ، فقلت له: كيف تشاحونه في الحرية السيّاسية وترومون مشاركته في الأمور الملكية ، والحال أنكم تسلمون له من الكمالات ما لايحتاج معه إلى المشاركة ؟ فأجابني بقوله : من يضمن لنا بقاءه مستقيما واستقامة ذريته بعده ؟

ومما يناسب سوقه هنا ما ذكره المؤرّخ الشهير «تيارس» ـ أحد أعضاء مجلس النّواب بفرنسا الآن وكان وزيرا للملك ـ لويز فيليب في آخر **تاريخه** المشهور عند ذكر عواقب الاستبداد من أن العمل بالرّأى الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف ، بعدما ترجم لنابوليون الأول بأوصافه الخاصّة وألحقه في السيّاسة بافراد الرجال الذين جاد بهم الدّهر في القرون الماضية حتّى وصفه بهمّة "أسكندر" الرّومي "وقيصر" الرّوماني وذكاء «أنيبال» الافريقي ومعارفه الحربيّة ، الى أن قال مخاطبا للفرنسيس : تعالوا نمعن النّظر في أفعال هذا الملك التي هي في الحقيقة أفعالنا فيستفيد منها من كان جنديا كيف ينبغي

أن تقاد الجيوش،ومن كان من رجال الدّولة معرفة كيف ينبغي أن تكون إدارة المملكة ، وكيف ينبغى أن يرتفع شأنها بدون خروج عن دائرة التّواضع والرفق ، إذ المعاملة متى لم تكن مصحوبة برفق وقناعة لاتتحمل وربما يفضي ذلك إلى اسباب الاضمحلال كما أفضت إليها سيرة المذكور الذى هو أقل البشر قناعة . فبالجملة نعتبر بغلطاته فنتجنبها ثم نستفيد معاشر ابناء الوطن تربية اخيرة لا يسع نسيانها وهي أنّه لا يسوغ أبدا أن يسلم امر المملكة لانسان واحد بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده ولوكان اكمل الناس وأرجحهم عقلا وأوسعهم علما . ونحن وان كنّا لسنا ننتقد فعل نابوليون في افتكاك فرنسا من أيدى الديركتوار بعد أن كانت أشرفت على الضياع في أيديهم ، لكن نرى أن وجوب استخلاص المملكة من تلك الأيدى الضعيفة الخاسرة لا يكون حجّة في إسلامها إسلاما مطلقا ليد قاهرة متهورّة لا تبالي بشيء ولو كانت هي اليد المنتصرة في «ريفلي» و«مرنقو» . على أنّا نقول إن كان هناك امة تعذر عذرا ما في تسليم أمرها لشخص واحد فلا تكون غير الأمة الفرنساوية في ذلك الوقت، أعني سنة ثمانمائة وألف . حين استرأست نابوليون المذكور عليها والنّاس إذ ذاك فوضى لا سراة لهم ولم يكن المشير عليها بذلك قاصدا مجرّد تخويفها لإلجائها إلى قيود العبودية ، بل كان الخوف متحقّقا بالمشاهدة . فواحسرة تلك الامّة على

ألـوف من النفـوس البريئـة صرعت بـالمجزرة وألـوف كذلك خنقت بسجـون الـديـر وألـوف أغـرقـت بـوادى «لـوار» !
وبـالجملـة فقـد حلّ بـأولئك المتمدنيـن من أفعـال المتـوحّشيـن أمـر فظيـع روّعهم وأرعد فـرائصهم، ولم يزالوا بعد سكون تلـك الثـورة القـاسيـة رائجيـن بيـن السيّـافيـن المـولعيـن بقطـع الرؤوس ، وهـم جمـاعـة الـديـركتـوار وبين الجهّال المتغـربيـن عن وطنهـم وهم شيعـة الملـوك الذين كـانـوايـرومـون بـإراقـة الدمـاء إرجـاع فـرنسـا إلى الحـالـة القديمـة التي كـانت عليهـا قبـل الثّورة مـع مـا طـرأ عليهـم في اثنـاء ذلك الاضطراب من ظهور سيف الاجنبي متهـددا ، فبينمـاهم في لجج الهرج إذ أقبل من المشـرق الشـابّ المنصور ، الذي ذلّت لـه صعاب الأمـور، العاقـل المتواضع المغـري بـاستمالـة قلوب البشـر وهـو نـابـوليـون المشـار إليـه . أفتـراهـم والحـالـة هـــذه لايعذرون في إلقـاء زمـامهـم بيد المذكـور ؟ بلى .

اذا لم تـكن إلا الأسنـة مركبـا فـلا يسع المضطـر إلا ركـوبها

ومع ذلك فلم تمض إلاّ سنوات قليلـة إذ انقلب ذلك العاقـل مجنـونـا بجنـون غيـر مماثـل لجنـون أربـاب الثّورة ، والجنون فنـون! فـإنّه تقـرّب بمليـون من النّفوس في ميدان الحـرب، وحمـل أهـل أوربـا على التعصّب على فـرنسـا حتّى بقيت مغلـوبـة غـريقـة في دمـائهـا مسلـوبـة من نتـائج انتصـارهـا مدّة عشـريـن سنـة ، بحيث صارت على حـالـة يُرثى لهـا ، ولم يبـق لهـا ان تستثمر بعد ذلك الا مـا كـان مزدرعـا فيهـا من بذر التمدن الـوقتي

فمن كان يظن أن عاقل سنة ثمانمائة وألف يجن في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة والف؟ نعم، كان يمكن توقع ذلك لو أمعنوا النّظر في أن الذي له القدرة التامّة، بحيث يستطيع أن يفعل كل ما يريد، معه داء لادواء له، وهو الشهرة الداعية لفعل كل مستطاع ولو كان قبيحا. إذا تقررّ هذا فعلى أبناء الوطن أن يتاملّوا سيرة المذكور ويستخرج منها كل فريق ما يناسب خطّته، والأهم أمر واحد وهو أن لايطلق أمر الوطن لانسان واحد كائنا من كان، وعلى أي حالة كان. وقد ختمت هذا التاريخ الطويل المستوعب لأحوال نصرنا وانهزامنا بهذه النّصيحة بل الصيحة الصادرة عن صميم فؤادي، غير مشوبة برياء، راجيا بلوغها الى قلب كل فرنساوى ليتيقن جميعهم أنّه لا يليق بهم بذل حريتهم إلى أحد، كما لاينبغى لهم الافراط فيها حتّى تنتهك حرمتها». انتهى المراد منه.

وفي حكمة أرسطو أن من الغلط الفادح أن تعوّض الشريعة بشخص يتصرّف بمقتضى إرادته. فإذا تأملت كلامي هذين الحكيمين وما تضّمنه اولهما من المشاحة في الاستبداد مع كون المستبدّ من المشهود لهم بمزيد العرفان والاهليّة تعرف بذلك ما جبلت عليه نفوس القوم من حبّ الحريّة والامتناع من ظلم الملوك، كما يشهد به كلام سيّدنا عمرو ابن العاص -رضي الله عنه- في حديث مسلم الذي رواه المستورد

مقتطفـــــات

من

مـذكـرات خيـر الـديـن

من مذكرات خير الدين باشا

من دواعي فخرنا ان نتمكن هنا من نشر صفحة جديدة من التاريخ التونسي لم تعرفها العربية بعد ؛ فان تاريخنا الاخير
قد انطوى عنا منذ مات آخر مؤرخ تونسي بحـق ، الـوزير ابن أبي الضياف » •

وهي مذكرات كان املاها الوزير على احد كتابه عندما كان بالآستانة •

ويرجح أن تكون قد كتبت اثر الاحتلال الفرنسي للربوع التونسية وقبيل موته الذى كان 1890 (1) •

وقد اخترنا منها ما يتعلق بنشأته وما يتعلق بتونس خاصة

اما عنوانها الذى اختاره لها فهو « الى ابنائى » « والعالم الأدبي » تفتخر بان تتولى تعريب تلك المذكـرات وتنشـرها لاول مرة في اللغة العربية » •

« العالم الادبي »

(1) المعروف انه توفي سنة 1889 ولعل الاختلاف ناشىء عن مقارنة التاريخ الهجرى بالميلادي « الناشر » .

نشأتى وحياتى السياسية فى تونس

وإن كنت أعرف أنى شركسى الأصل فأنا لا أتذكر شيئا عن بلادى وأهلى • فقد التقطت فى إحدى الغزوات أو الرحلات ، وأنا صغير جدا ، لا أدرك شيئا ، ففقدت كل أثر يدل عنهم ، ولم أتمكن بعد أن كبرت من أى برهان جدى على معرفة أقاربى وبلدتى •

إنما أذكر أنى فى بدء نشأتى كنت فى الآستانة ومنها انتقلت سنة 1255 هـ الى تونس بين مماليك الباى •

فتربيت فى القصر ، وقرأت العربية والعلوم الاسلامية ، ثم التحقت بالجندية حيث أخذت معارفى الحربية تحت إشراف بعثة من الضباط الفرنسيين استقدمت رسميا لتكميل معارف وتنظيم الحربية التونسية •

وقد ارتقيت سلم رتب الجيش رتبة رتبة ، حتى إذا أصبحت فى رتبة كولونيل التحقت بوظيفة معين للامير أحمد باشا باى وأعطى لى لقب « فريق » الذى هو أعظم الالقاب التى تمنح فى تونس ، وبتلك الصفة اسندت الى رئاسة فريق الفرسان « فريق خيالة » •

ولم ألبث أن اتجهت بى الظروف الى الابتعاد عن الجيش للالتصاق بالسياسة •

وأول مأمورية تحملتها كانت فى حدود سنة 1270 هـ حيث أرسلنى الامير الى باريس لمحاكمة محمود بن عياد وإثبات حقوق الدولة التونسية ، حيث انعقد مجلس العدول من وزارة الأمور الخارجية الفرنسية فى هيأة مجلس تحكيمى ندبه الامبراطور نابليون الثالث لذلك •

قضيــة محمــود بــن عيــاد

وكان الجنرال محمود بن عياد يتولى لزمـة توريـد مـا تحتـاجه الحكومة التونسية طيلة عشرين سنة · وهو غرس الوزير الأكبر مصطفى خزنه دار الذى اغتنم فرصة الثقة الكبرى التى منحها له أحمد باى فجعل محمود بن عياد شريكا له ، ثم أعطاه دخل المملكة وخرجها « لزمة » ليمكنه من أكبر ربح ، وهو من وراء ذلك الرابح المتصرف بالفعل · فان الشريكين بعد أن ملآ وطابهما من أموال المملكة المسكينة طيلة عشرين سنة ، اكتنزوا فيها بضعة ملايين حفظاها فى كنوز مؤتمنة ، حتى إذا خافا وشعـرا بخطر الافتضاح وعواقبه عمدا الى تهريبها الى خارج القطر ؛ حيـث سهل الوزيـر خروج محمود بن عياد الى فرنسا تحت عنوان مرضه واحتياجه للعلاج فى الخارج ، وذلك دون ان يهتم او يعرج على محاسبته أو التثبت من تصرفاته الفائتة ·

وقد تجنس الرجل بالجنسية الفرنسية ، إذ اشترى أملاكا وأتـم موجباته القانونية · ولكنه لم يتمكن من إتمام جميع ذلك بالنسبة لشريكه خزنه دار رغم تعهده له حسب إقراره إذ أن خزنه دار لم يكن مستقرا بالديار الفرنسية ·

فاستنجد الجنرال ابن عياد بجنسيته الجـديدة لمطـالبة الـدولة التونسية بـ 60 مليونا من الريالات (40 مليون فرنكا) منجرة اليه من بعض العمليات · وطالبته الدولة التونسية من جهتها بالمحاسبة على جميع تصرفاته مدة لزمته وبحججه فيما يطلب ؛ فكانت ميدان نازلة دامت ثلاث سنوات ونصف تمكن فى خلالها ابن عياد مـن توطيد قدمه واكتساب أهمية معتبرة فى الأوساط الفرنسية بفضل دسائسه وأمواله الطائلة حتى أن الامبراطور نابليون الثالث قبل أن يكون حكما ، وكلف تلك اللجنة الوزارية تحت رئاسة السيد بوراليس عضو مجلس الشيـوخ الفـرنسى لحل المشكـل وتقـديم

التقرير ، وقد وضعت أنا فى هاته القضية كتابا فى 18 فصلا لدفع هاته النازلة ، وكانت النتيجة التى تحصلت عليها قد عوضت عنى جميع أتعابى ؛ إذ ربحنا المسألة من ناحيتين اثنتين : فقد حكم المجلس التحكيمى بارجاع مزاعم ابن عياد التى يطلبها منا الى خمسة ملايين عوض 60 مليونا من الريالات مع الحكم عليه بأن يدفع للدولة التونسية 14 مليونا من الريالات العين أى 9 ملايين فرنكا ؛ فقد روجعت المحاسبات برغم قلة الحجج التى بأيدينا ، من ذلك أن هذا الحكم طرح أكثر من 20 مليونا من الريالات كان دفعها للديوانة التونسية بعنوان رخص لوسق الزيوت ·

والخلاصة أن الحكومة التونسية ربحت بهذه القضية حوالى 34 مليون ريال حكم عليه بأدائها مالا عينا ورخصات لوسق الزيت · مع 55 مليون ريال التى ادعاها بصفته ملتزم عام للدولة ·

ولما رجعت الى تونس سنة 1274 هـ أسندت الى وزارة البحر ورئاسة المجلس الأكبر المنتخب الذى تأسس حديثا للاشراف على المصالح العامة · فقمت بأعباء هاتين المهمتين خمس سنوات ، ولكن لابد لنا ان نلاحظ أن الباى ووزيره الأكبر مصطفى خزنه دار صاحب اليد الطولى لم يكونا ليرضيا بهاته الاصلاحات الا ليحللا سيئاتهما من وراء وتحت غطاء التنفيذ لما يصدره ذلك المجلس ، وقد حاولت بكل الوسائل أولا أن أرجع بهم الى طريق الاستقامة والصدق ، لخير الامة والبلاد ، فلم تأت مجهوداتى بأى نتيجة ، ولم أرتض أن يكون وجودى وسيلة شعوذة على الوطن الذى استبنانى بما يجره حتما للخراب · فقدمت تسليمى سنة 1279 هـ· من رئاسة المجلس ووزارة البحرية وانزويت فى حياتى الشخصية ·

ثـــورة الشعـــب

وبعد انسحابى بمدة قليلة ، لم يطق الاعراب تحمل ذلك النظام الاستبدادى الغاشم الذى فرضوه عليهم ، فثاروا من طرف المملكة الى

طرفها ، بما أحست به الحكومة أنها على أصبعين من الهلاك • وقد أحس الباى بالدائرة تضيق عليه وهو عاجز عن كبح هاته الثورة العاتية (I) ، وهو ينتظر زحف الثوار بين يوم وآخر على البلدة (2) وقصره ، وفى أثناء ذلك أرسل جلالة السلطان مبعوثا فوق العادة من طرفه فى مراكب حربية ، ومعهم مليون فرنك عينا ، كما وصل لشاطىء تونس أساطيل من جميع الدول الاوروبية • وقد علم حضرة حيدر أفندى مبعوث جلالة السلطان كيف يلعب دوره بلباقة وقدرة فى ذلك الموقف العصيب • وهكذا كانت البعثة السلطانية وظهور الأساطيل الأروبية مساعدين على تحويل مجرى الحوادث لفائدة الحكومة التونسية • فقمعت الثورة وخضدت شوكة الأعراب بوضع غرامة حربية قيمتها مائة مليون ريال •

مهمـــات ورحـــلات

بينما أنا ــ برغم جميع الحاحات الباى ــ قد بقيت منعزلا عن جميع الحوادث • وان كنت لم أجسر على عدم القبول ببضعة مأموريات قمت بها لدى بلاد ألمانيا وفرنسا وأنكلترا وايطاليا والنمسا والسويد وهولندا والدنمارك وبلجيكيا • إنما قضيت معظم مدة إقامتى فى الربوع الفرنسية ، وهاته السفرات مكنتنى من دراسة مختلف الأوساط وأساليب التمدن الأوروبى • كما تبينت فيها النظم الأساسية للمالك الأوروبية الكبرى ، وقد اغتنمت الأوقات التى كنت أتمتع فيها بحريتى الذاتية لتأليف كتابى السياسى الادارى الذى سميته « **أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك** » •

وحيث كنت معروفا فى تونس بشدة دفاعى عن فكرة وجوب ربط الايالة التونسية بالسلطنة العثمانية ، فقد وقع تعيينى للسفر الى

(I) هى الثورة المعروفة بثورة على بن غذاهم وقد اندلعت عام 1864 (ك) .
(2) أى العاصمة (ك) .

الآستانة لكى أضع مع الدولة العلية شروط فرمان يعترف رسميا بالحالة الراهنة الجارى بها العمل منذ أربعة قرون ويشبه فى الوقت نفسه الصلات التونسية بالسلطنة التركية • فان تدخلات الدول وتلك المشاغبات المبنية على عدم جلاء موقف الحكومة التونسية إزاء الممالك الأوروبية قد أشعرت الحكومة التونسية بوجوب القيام بتلك المساعى •

وفى الساعة المحددة ركبت باخرة للحكومة التونسية للسفر ، ولم يبق الا انتظار أن تتولد القوة الكافية من ضغط البخار لتحريك الباخرة ، وإذا بهم يعلموننى بزيارة القائد الثانى لمدرعة فرنسية كانت راسية بمرسى حلق الوادى •

مثل الضابط لدى وسألنى هل أنا مسافر فى هاته الليلة ؟ وعند جوابى الايجابى أبلغنى أن رئيسه (قبطانه) يرجو منى تأخير يومين أو ثلاثة ليتوفر لقنصل فرنسا الوقت اللازم حتى تصله التعليمات المتعلقة بسفرى من باريس • فقلت له : « **سيدى انك عسكرى مثلى ، وتعلم أننى لا أستطيع مخالفة أوامر حكومتى بدون الاخلال بواجباتى كلها • ويجب أن تفهم أن لا حق لى فى الاختيار بين مرضاة قبطانك والقيام بواجباتى ، وعليه فها أنا ذاهب حسب التعليمات الصادرة الى** » •

— 2 —

فأجاب الضابط : « أننى أنذرك بأن رئيسى يرى نفسه مضطرا — مع مزيد الأسف — الى منعك بالقوة » ! فانتصبت لتهديده ورددت عليه قائلا : « كان من الواجب أن تقول هذا أولا • وأنا لست تحت أوامر رئيسك ، وما قلته لا يغير شيئا من عزيمتى وللحكومة التونسية الحق فى أن تبعث بموظفيها حيث شاءت ، ولكى تتحقق أنى لا أهتم بذلك فانى أعطيتك الوقت لترجع لباخرتك وتعلمه بنتيجة مقابلتنا وعندها أرفع المخاطيف • وأعلمك أنه لو حاول

رئيسك تنفيذ تهديداته فانى أدافع بكل الوسائل تاركا عليه مسؤولية الحوادث جميعا » وسافرت بعد ذلك وكانت الفرقاطة الفرنسية تتبعنى الى الصباح وترسل لى باشارات الطاعة ، التى لم أكترث بها أكثر من اكتراثى بالتهديدات السالفة ·

وصلت الى الآستانة فقابلت فؤاد باشا الصدر الأعظم وعلى باشا وزير الشؤون الخارجية ، وتحدثت معهما فى مأموريتى ، وبعد المذاكرات الطويلة اتفقنا على أسس فرمان سلطانى يحدد :

1 ـ حقوق السيادة لجلالة السلطان على الايالة التونسية وواجبات البايات إزاء السلطنة العثمانية ·

2 ـ الاستقلال الادارى لتونس كما هى عليه من القديم مع تأييد الحق الوراثى فى العائلة المالكة ، مع اشتراط تحتم أن تكون البلاد محكومة بدستور ثابت ، من شأنه ان يثبت الامن وسعادة السكان ويضمن حياتهم وشرفهم ومكاسبهم ·

ولكن الوقت لم يكن مساعدا على نشر ذلك العقد البهيج ، واضطررت الى الرجوع لتونس لا أحمل الا مجرد كتاب من الصدر الأعظم متضمنا لشروط الفرمان السلطانى الذى سيقع ادراجه فيما بعد ·

فساد حكومة خزنه دار

على أن الوزير الاكبر مصطفى خزنه دار لازال مثابرا من جهته على مشروعه الخبيث ؛ فبعد أن أخذ يضايق المجلس الأكبر المنتخب الذى يحاول من جهته أن يصر على موقف شريف ، وأن لا يكون آلة جامدة فى أيدى خزنه دار · فألغاه هو وجميع الجهاز من المؤسسات الملحقة به ، وهكذا سقطت البلاد من جديد تحت النفوذ والسلطة الشخصية للوزير أكبر ، الذى لا يتأخر مطلقا عن ارتكاب كل شيء للمحافظة على سلطته وليروى غلته التى لا تنطفىء من طلب المال ·

وبعد أن أتى مصطفى خزنه دار على جميع منابع ثروة المملكة ارتمى فى الاقتراض المخرب • وهكذا فـى مدة سبع سنوات بين 1279 وسنة 1286 نرى تونس التى كانت حرة قد أصبحت غارقة فى دين قدره 240 مليون ريال من الدول الأوروباوية ومختلف التجار وبرباء يتراوح بين 12 و 15 فى المائة سنويا • ومهما يكن من المهم تتبع أعمال مصطفى خزنه دار ، فلربما يشق ويطول كثيرا تعقب مناكر أعماله التى قام بها طيلة 36 سنة يحدو فيها البلاد الى الخراب دون أى شعور أو ضمير ، فلنقصـر البيان على السبـع السنوات الأخيرة التى قضاها فى الوزارة وهى من 1279 الى 1286 هـ •

لقد كانت البلاد فى بحبوحة من العيش الرغيد طيلة قرون تسدد حاجياتها بمالا يزيد على 20 مليون ريال ، فلما وضع مصطفى خزنه دار يــده تضخمــت الأداءات الى ضعفيها بل بلغـت حتـى ثلاثـة أضعافها لفائدة هذا الوزير وأعوانه • ومع ذلك سنغمض الطرف عن هاته الحقيقة ولا نعتبر الا العشرين مليون ريال المتفق عليها رسميا، فمصطفى خزنه دار قد قبض فى تلك السبع سنوات :

140.000.000 ريالا دخل ميزانية 7 سنوات
100.000.000 ريالا غرامة حربية دفعها الأعراب
240.000.000 ريالا مختلف القروض
1.600.000 ريالا اعانة جلالة السلطان

فهو قد قبض فيها 481.600.000 ريالا ولنقل تسهيلا 480 مليون ريال تونسيا أى أكثر من 300 مليون فرنكا • وهذا المقدار الفاحش بالنسبة لتونس الصغيرة ، قد بذره خزنه دار وأميره بمعــدل 68 مليونا ونصف سنويا • بل انهم أكلوها بأسرع من ذلك بكثير ؛ حيث إنهم فى السنتيــن الآخيرتين كانوا لا يجــدون فيهــا حتــى ما يدفعونه لمخصصات أعضاء العائلة المالكــة ، ولا للموظفين ولا ولا للحربية ، ولا مخصصات فوائض الديون ! كــل ذلك دون أن يقوموا بأى نفقات فوق العادة أو أشغال عمومية ، بل إنهم لم يفكروا فيها مجرد التفكير •

فالايالة التى خربت ونضبت مواردها لم تعد قادرة على القيام بدفع فوائض الدين فاضطرت آخر السنوات السبع الى إيقاف الدفع ٠ وهكذا قادها خزنه دار بالفعل الى الافلاس ٠

اللجنـــة الماليـــة للديـــون

وفى هاته الظروف طلبت فرنسا تعيين لجنة مالية لتصفية الدين وحماية مصالح المدينين للحكومة التونسية ، وانضم لفرنسا فـى ذلك كلتا الدولتين إيطاليا وأنكلترا ٠ فتعينت اللجنة من مندوبين انكليزيين وفرنسيين وايطاليين تحـت رئاسة موظف وناظـر مالى فرنسى بعنوان نائب رئيس ، وكانت وظيفتها توحيد الدين وتحديد الفائض ومباشرة المداخيل التى تسدد جميع النفقات لذلك ٠

وقد ألح الباى على الحاحا جديا لقبول رئاسة اللجنة ، فلم أجسر على الامتناع نظرا لخطورة الحوادث الدائرة فتعينت رئيسا للجنة المالية ووزيرا مباشرا (I) ٠ وهذا اللقب الوزارى أحدث خصيصا لى ، أو بالحقيقة أحدث هذا اللقب حتى لا ينزع من مصطفى خزنه دار لقبه « وزير أكبر » ٠ فـان الباى أراد أن يحافظ على صلاتـه بهذا الرجل الذى خرب المملكة ، والذى لا يهمه الا عرقلة المهمة التى أسندت الى ، اذ كان التفاهم والاتفاق بيننا ضربا من المستحيل ٠

وقد أظهر أعضاء هاته اللجنة المالية كفاءة وقدرة مهمة ؛ خصوصا السيد فيبات المتفقد المالى الفرنسى ، ذلك الرجل ذو الذكاء الوقاد والكفاءة النادرة ، فتعاونوا جميعا على تسوية الدين التونسى وتحقيق برنامج اللجنة ٠ ولكن لم ألبث الا قليلا حتى سقط مصطفى خزنه دار وتعينت أنا وزيرا أول ٠

(I) هى اللجنة المعروفة بلجنة الكومسيون . وكان مقرها بالشارع المعروف اليوم بنهج الكومسيون (ك) .

تخلف البلاد وانهيارها اقتصاديا

وفى مدة تصرفى خففت من أعباء الضرائب تقوية لعزائم المنتجين واحياء لحب العمل فى الشعب ، بحيث لو استمرت الدولة على إدخال 20 مليونا سنويا فلا ندخل لهذا الصندوق الا 120 مليونا فى المدة التى كفت سلفى لتبديد 480 مليونا مما سببت الخراب المالى للبلاد . ومع ذلك فان تلك الـ 20 مليونا كفت جميع واجبات الادارة ، مع القيام بواجبات الدين التونسي الموحد ، كذلك الموظفين والواجبات الحربية وحتى نفقات الباى ومرتبات عائلته المالكة العديدة الأفراد ، بل انى تمكنت من فتح بعض الأشغال العمومية التى سأتعرض لها بعد ، دون أن ألجأ لاى قرض . وعندما تركت الوزارة كانت تونس على خير حال وأمن وطمأنينة . مما أنساها عهدها منذ مدة . ولا يمكن أن يقال ان الباى وموظفى الحكومة هم المسؤولون على جميع المصائب ، فان هؤلاء جميعا ونفس هذا الباى لم تتغير أشخاصهم مدة تولى الحكم ، وهم أنفسهم استمروا بعدى يسوقون الايالة للضياع .

فعندما ارتقيت منصة الوزارة ، وجدت المملكة على غاية البؤس والفاقة . وكانت تونس ، التى هى بلاد زراعية بحتة ، قد أصبحت فيفاء قفرة وصحراء قاحلة ، لان الفلاحين الذين رأوا انتاجهم تتخطفه أيدى الجباة والأعوان ، تحت عنوان جمع الضرائب ... انحطت هممهم وعافت نفوسهم العمل . بحيث لم يعد محترثا من جميع المملكة الا 60 ألف هكتارا . وهكذا نضبت موارد الثروة العامة والثروة الفردية ؛ بحيث ان قوة الجيش وأعوان الامن العام لم يعد يصلهم الا أقل ما يسد الرمق ، كما أنهم بقوا بدون مال ولا تجديد ثياب ، فوقعوا فى شر الحالات النفسية والفاقة . وأكثر الموظفين ايضا وقعوا فى تلك الحالة ، وأصبحوا يتبايعون على واجباتهم وضمائرهم ليسدوا الرمق ، بحيث ان اضمحلال الثقة ساد حتى على أعلى طبقات الحكومة ، ونفس الحياة اصبحوا فى المساومة ، بل ان القضاء والعدل نفسه لم يعد خالصا من هذا الفساد العمومى .

وأخيرا فان الشعب نفسه أصبح بؤرة لمطامع الكبراء ، يستثمرونه جميعهم من الاكبر الى الأصغر ؛ فتناثر رباط هذا الشعب فى ذلك الجو من البؤس ، وأصبح كل واحد يرى حكومته مصيبة ويحذر منها كعدو ، ويستعمل جميع الوسائل لهروب من نيرها • ومن جهة أخرى فان علائق تونس الخارجية أصبحت على غاية السوء فلم يبق لها أى ثقة أو نفوذ مالى ولا أدبى [لدى جميع الدول] • ولازالة هاته الحالة العامة المحزنة كان لا بد من البحث عن حقيقة المرض لوضع الدواء الناجع •

ان السبب الاول لهاته الامراض التى سببت ذلك الانحطاط انما هى تلك الادارة البغيضة التى أضاعت نفوذ الحكومة الادبى وثقة الشعب فيها • ذلك الداء الذى كان تدحرج بالبلاد الى الخراب • فلا بد إذن من وضع أسس نظـام إدارى جديد ، يرتكز على الحـق والعدالة ويطهرها من الروح الاستبدادية الغاشمة ، لتستبدل ذلك بوضع الحكومة فى دورها المقدس الذى هو حماية مصالح الشعب ، واسترجاع الحكومة للثقة والنفوذ اللذين هما الصفة الـلازمة لكى يمكنها ان تسير بالبلاد فى طريق الرفاهية والهناء •

وكما قلت من قبل فان الشعب الذى انكسرت عزيمته قد ترك قسمه الأوفر سبيل العمل الشرعى ، وفـى مقابل ذلك أخـذت السرقة والجرائم تنتشر انتشارا يؤسف له•وهذا الفشل وانكسار العزائم كان نتيجة أسباب عديدة :

1 ـ الضرائب كانت ثقيلة الحمل بالنسبة لقدرة البلاد ، بحيث ان العموم قد عجز عنها وتكون منها متأخرات هائلة يستحيل دفعها ، وأصبحت ثغرة هائلة وسيفا معلقا على رأس العاملين مما أوقفـت النشاط وحب العمل •

2 ـ عوض المحافظة على الحدود الشرعية الاسلامية الرشيدة التى حددت العشر من النتاج الفـلاحى للمصلحة العامة ، فان أسلافـى اجتازوها الى حد أن أوصلوا تلك الضرائب الى درجة الثلاثين فى

المائة والأربعين من انتاج الصابة ، فرأى الفلاح بعينه الجباة لا يكتفون بالاستحواذ على نتائج عرق جبينه بل كثيرا ما يضطرونه لبيع ماشيته ومحراثه لاستخلاص الضريبة بلا رحمة ولا شفقة ٠

3 ـ ان المكلفين بالقيس الفلاحى ولجان تعقيب المزارع المكلفين باستخلاص أداءاتها يدفعهم الاحتياج وتنشطهم اليد الخبيثة ممن فوقهم ، وهم بلا رقيب ولا معقب عليهم ، فكانوا يرتكبون ما شاء الله من التعديات والمظالم على دافعى الضرائب ٠

4 ـ قد وظفوا على البدو ضريبة شخصية ، كان استخلاصها شديد الوطأة وبطرق فاضحة مرهقة ٠ فالحكومة تعين لكل قائد (عامل) مبلغا يجب عليه تسديده للخزينة مفوضة له كيفية توظيفها على من لنظره حسبما يحب ؛ الأمر الذى جعل كل ساكن تحت رحمة ذلك (العامل) ٠ بينما هذا العامل لم يأخذ مركزه ذاك الا بعد أن دفع ثمنا بهيضا ؛ وهو يعيش دائما مهددا بخطر العزل لمجرد الأهواء او لتسديد حاجة الوزير الأكبر باستثمارها وهكذا صار هذا العامل مدفوعا ليأخذ ويستثمر مركزه بجميع ما يمكنه من الوجوه وفى أقصر وقت ممكن ، خصوصا وهو يعلم أن ليس هناك أى نوع من المراقبة ، فهو ينتف (I) بلا شفقة ولا رحمة لفائدته الشخصية ، مستعملا جميع أضرب الارهاق التى يصورها له خياله ٠

(I) كلمة محلية بمعنى لا يترك شيئا (ك) ٠

اصلاحات خير الدين
تخفيف الضرائب

فبدأنا عملنا بتخفيف عام واسقاط ما أثقل الكواهل من متخلدات الضرائب ، التى أصبح من المستحيل خلاصها لتتخلص الامة من تحملها لعبء لا طائل تحته . ثم باشرت تنظيم الضرائب بحيث يمكن خلاصها وجعل الدخل ثابتا ومنتظما بالرجوع الى طريقة الأعشار ، أى بقصر الضرائب على عشر المحصول . ولضمان تلك الجباية بأسلوب عملي فقد قسمت المملكة الى منطقتين حسبما كانت تتطلبه الظروف : فقسم يدفع هذا العشر مالا بينما الجهة الأخرى يستخلص فيها العشر من نفس النتاج . وانتخبت الجباة من أصحاب الهمم الشريفة ، وان كنت فى الوقت نفسه قد وضعتهم تحت المراقبة . كما أصدرت التعليمات اللازمة ضد جميع الموظفين الخونة والذين اعتادوا النهب والسلب ووضعت العقوبات الزجرية لكل من يقدم على ذلك .

ولتنمية وتنشيط الفلاحة أعفيت الغابات المحدثة من الزياتين والنخيل من كل ضريبة الى أن يبلغ عمرها عشرين سنة ، وسننت جهازا كاملا من القوانين لفائدة البوادى فى الملكية والجوار والخماسة والاستخدام ... الخ .

وحجرت تحجيرا تاما معاملات اللزمة وخفضت الضريبة الشخصية (المجبه) الى مقدار محدود وهو 36 ريالا على الرجل . ووضعنا حدا نهائيا لجميع خيانات وتعديات القياد (1)

وهناك مصيبة أخرى يتحمل الشعب مباشرة وقرها المرهق ، وهى جماعة الصبائحية الذين هم أعوان المحافظة الفرسان ويقومون بواجب الأمن لدى البدو ، وأعوان تبليغ وجلب للمحاكم لكل من كان فى ناحية قصية ، وهم الذين يوجهون لاستخلاص الخطايا . (2)

---

(1) جمع قائد ، وهم عمال (ولاة) الجهات . (ك) .
(2) جمع خطية ، وهى محليات العقوبة المالية . (ك) .

بينما الحكومة لا تتحمل لهم بأى نفقة ، وتوكل لهم فى مقابل ذلك أمر تقدير اجرتهم ، وأن يستخلصوها مباشرة من المدعى عليه • على أن نظامهم لم يكن دوريا بينهم ، وعلى ذلك فان الرؤساء يخصصون القضايا المهمة بمن يوثرونه ويقتسمون معه الأجر ، بينما غير أولئك المقربين لا يكلف الا فى العجاف • وقد نشأ عن ذلك عيبان فادحان :

1 ــ إن هؤلاء « الصبائحية » الذين لا مورد لهم نظامى أصبحوا عاملين على ان يكون لهم أعظم ما يمكن أن يطولوه من الغنم ، ولا يتكون وسيلة لابتزاز المال ممن يقع بين أيديهم •

2 ــ أصبحوا فى انفسهم على فريقين فريق ممتاز غنى محظوظ وآخر يرسف فى الجوع والفاقة •

على أنا لم يكن فى طوقنا ترك الحال على ما هو عليه ، بينما كانت حالة البلاد المالية لا تسمح بتخصيص جرايات للصبائحية ، فأبقيت وقتيا معلوم الخدمة يستخلص كالعادة ، ولكننى حددته بقانون مدقق راعيت فيه طول المسافة وأهمية المسألة التى أوجبت البعثة • وهذا الأداء المحدود المصغر لا يعتبر فى الحقيقة حملا باهضا لعدم وجود ضرائب على المتقاضى • فان المملكة التونسية جعلت المحاكمات متخلصة من كل أداء ، وبالأخارة نزعا لكل تفاضل وإثار بين أفراد أوجاق الصبائحية ، فقد جعلنا لكل وجق صندوقا تجتمع فيه معاليم خدمة جميعهم ، وبعد استثناء نفقات السفر ، فان ما يتحصل يقسم بين جميع أفراد ذلك الوجق لتلك الناحية على رأس كل شهر بلا حيف •

وكانت الحكومة مضطرة دوما لاستعمال قواتها وإرسال الأمحال العسكرية لأرغام الشعب على خلاص الضرائب الباهضة ، خصوصا فى أطراف المملكة والعروش المنتقلة • وكانت هاته الحملات العسكرية الدورية الدائمة تكلف الحكومة نفقات مرهقة للخزينة ، وربما عمدوا فيها الى استعمال السلاح وحتى السرقات • ولكن

عندما أصبحت الأداءات متحملة ومنظمة بالوسائل التى اتخذتها أصبحت الاستخلاصات سهلة منظمة ، إذ خفت ظهور الناس من تحمل المظالم وشعروا بالسعادة وبالخروج من ربقة الضغط التى كانوا يحسون بها كلما مرت بهم محلة استخلاص المجابى ، فيأتون من أنفسهم لدفع ما عليهم الى المستخلص المحلى وحتى دفع ما تخلد بذممهم ٠

استرجاع ثقة الشعب

وبالفعل فان السير على تلك المناهج لم يلبث أن استتب به الشعور بالعدالة وطمأنينة الناس على أرزاقهم ، وأرجع هيبة الحكومة الى نصابها ، ولم يتأخر عن اعطاء النتائج الجميلة التى كنت أتوقعها ، واسترجعت الأمة ثقتها فى استقامة حكامها ، ورجع لقلوبهم النشاط للعمل ، وانبث فى كل مكان النظام والأمن ٠ حتى أن النساء أصبحن يسافرن بمفردهن من القرية الى القرية دون تهيب ولا توقع مفاجأة ، حتى فى الأماكن التى كان الناس لا يجسرون على اختراقها جماعات ، الا وهم على غاية التسلح والاستعداد ٠ وحتى الاعرابى الرحالة الذى لم يخضع منذ أجيال ، لما وجد الطمأنينة ووالعمل المثمر الشريف لديه ترك الغزو وخضع ، ثم أقبل يرعى سعيه ويحترث الارض ، ولم يبق للمفسدين فى جواره ملجأ فاستسلموا للحكومة بكل بساطة ٥ ونفس القبائل « العروش المتنقلة » على الحد الجزائرى لانت عريكتها بتلك الاجراءات ، وأقالنا الله من المشاكل التى كانت مع السلط الفرنسية ٠

وقد نشطت الزراعة نشاطا محسوسا ؛ ففى السنوات التى قضيتها فى الحكم بلغت الارض المزدرعة الى اكثر من مليون هيكتارا، لم أجد مزدرعا منها يوم ولايتى الا (6o) ألفا فقط ٠

على أن ذلك الجهد لم يقف على حد تنظيم الاستخلاصات ، بل شمل جميع شعب الادارة والعدلية ٠

تنظيـــم الجمـــارك

وجددنا نظام القمرق ، فزدت 5 فى المائة على السلع الواردة بينما خففت الأداءات على ما يصدر ، تنشيطا للصناعة والفلاحة . وأقمت سلسلة من مراكز الديوانة على الحد الجزائرى لايقاف حركة التهريب بقدر الامكان . وقد كانت مستفحلة استفحالا فاحشا وقد نظمت قسما خاصا بالارصفة (I) ومراتب الديوانة .

اصـــلاح الاوقـــاف

وأصدرت قوانين جديدة تنظم ادارة الأملاك الموقوفة ؛ التى كانت على شر حالة . وسميت لذلك لجنة لم تلبث أن أظهرت هناك نقصا يبلغ مليونين من الريالات ، ناشئا عن تهاون القضاة الذين كان لهم النظر على الأحباس وتحقيق المعاوضات . فكان التهاون مضيعا لأموال معاوضات الأوقات التى لا معقب لها ومات عنها أصحابها ، ومن ذلك أيضا وجود المقدمين الذين لا ثقة فيهم ، وهكذا تلاشت أموال لا أمل فى إرجاعها . ولتدارك الحال فقد أصدرت الأمر بتحجير بيع الأملاك المحبسة قبل تعيين أملاك عوضها . وهكذا تم وضع أموال تلك الأحباس حالا تحت هاته الادارة الجديدة ، فبلغت الى ملايين كثيرة من الريالات . ففرضت من تلك المداخيل جرايات راتبة للعلماء ومدرسى الجوامع الذين كانوا لا يتقاضون جرايات نظامية . كما أنى أعدت من هاته الأموال إرسال « الصرة » للحرمين الشريفين ، الأمر الذى كان قد تعطل إجراؤه منذ عهد .

وكان « الساحل » واقعا فى ورطة عامة ؛ فان الغرامة الحربية التى فرضتها الحكومة ، على أهل الساحل إثر الثورة التى كنت

(I) أى الموانىء .

ذكرتها (1) قد اضطرتهم الى ارتهان أملاكهم ومزارعهم عند بعض الأوروبيين بفائض باهض يبلغ 30 وحتى 40 فى المائة • ولما عجزوا على دفع ذلك الفائض المرهق فقد أصبحوا مهددين بالتسليم فى جميع أملاكهم التى أصبحت عاجزة دون القيام بذلك • فتداخلت لدى القناصل حتى نجحت فى تخفيض تلك الفوائض الى 6 فى المائة مع تقسيط الدين على آجال محدودة • وهكذا أمكننا انتشال هاته الجهة من خراب محقق •

وبهاته الاصلاحات جميعا أمكن لحالة الدولة المالية أن تتحسن بحيث إن المدخول أصبح كافيا لتغطية النفقات • فاعتدل الميزان الدولى وأمكنه أن يتحمل جميع واجبات الادارة •

ولم يشذ عن دائرة الاهتمام أعمال الاشغال العامة والتعليم العمومى ، فتحسنت الحالة العامة فى العاصمة التونسية ومهدت طرقاتها بالضرس ، كما أن الطرقات القديمة رممت وفتحت طرقات جديدة فى الآفاق • وأحدثنا سجنين أحدهما للرجال والآخر للنساء وجهزناهما بجميع الوسائل الصحية ، كما أننا ألحقنا بكل منهما مصحة ومسجدا •

اصـــلاح التعليـــم

كما أصلحت ووسعت المدارس الابتدائية التى نظمتها من جديد • ووضعت المدرسة الصادقية على نظم « اللسيات » الاوروبية ، وألحق بها 150 تلميذا على نفقة الحكومة يتلقون فيها تعليما متينا من دراسة العلوم العصرية واللغات التركية والفرنسية والايطالية ، فضلا عن تدريس اللغة العربية والعلوم الدينية الاسلامية • كما وضعت قانونا مدققا للتعليم فى جامع الزيتونة • ومن جهة أخرى

---

(1) ثورة على ابن غذاهم سنة 1864 .

فقد جمعت جميع المؤلفات التى كانت متلاشية فى الآفاق فأفردتها فى مكتبة عامة ، وقد أهديت لهاته المؤسسة مجموعة ثمينة تحتوى على 11.000 مجلدا مخطوطا وقد جعلت لهاته المكتبة قانونا على أحدث طـراز .

اصـــلاح القـضــاء

وأما من جهة الادارة العدلية فقـط نظمت باعانة أعوان السلطـة التنفيذية تقارير المحاكم ، وعينت وظيفة العدول وحقوق التسجيل ورغبة فى الاتصال المستمر مع العموم ، ومعرفة رغباتهم ، فقد وضعت فى الساحة العامة صندوقا ترمى فيه المكاتيب وجعلت مفتاحه بيدى ، وبذلك يتمكن العموم من ابلاغى جميع ملاحظاتهم وتشكياتهم دون واسطة ولا كلفة ، ويمكن لكل انســان ان ينبهنى لاى فعلة يجـب تعديلها ، دون أن يضطر الى ذكر اسمه ما دام فى الامكان التثبت منهـا .

السياســة الخارجيـــة

ومن جهة أخرى فقد كنت آخذ باصـلاح الحـالة السيـاسية من الوجهة الخارجية ، بصفتى وزيرا أكبر وبصفتى وزيرا للخارجية ، فاقمت علاقات طيبة مع جميع ممثلى الدول الخارجية ، وكنا عـلى غاية الاتفاق ، وبالخصوص فان قنصل فرنسا قد كلفته حكومته فى مناسبات عديدة بتبليغ حسن تقديرها للأمن والهدوء اللذين أمكننا مدهما على حدودنا مع الجزائر التى كانت تبدى لها مزيد الأهتمام . حيث ان سكان تراب الحدود هم قبائل متصلة ولهم مصالح مشتركة متشابكة يتبادلون دوما الحـركة والسكون ، وفـى الحقيقـة فقـد اتخذت من القناصل وممثلى الدول خطة واضحة جلية لا تترك أى مجال للدسائس التى اعتادوها فى الممالك الشرقية ؛ فقد كنت أواجه الرغبات الشرعية والحقة بالاجابة الصريحة الحقة ، كما كنت

أرفض التدخلات المريبة بكل لباقة ووضوح ، بحيث ننتهي دائما بالاحترامات المتبادلة ٠

وكانت تلك هي نفس طريقتنا حتى مع القناصل الذين كانوا يتصيدون الفرص لوضع العراقيل في طريقنا ، والذين سنتعرض اليهم بالبيان من بعد ٠ وهكذا كنا ننتهي بهم للوفاق ولو الظاهري ليكونوا دوما صلات رسمية طيبة معنا ٠

احكام الصلات بالخلافة

أما مسألة الاتصال مع تركيا فانها لم تنفك نصب عيني وشغلي الشاغل ، لان موقفنا تجاه السلطنة العثمانية لم يكن على غاية الجلاء من الناحية الداخلية الرسمية ٠ وكنت دائم اليقين بأن تحقيق علائق الايالة التونسية بالسلطة العثمانية هو شاطيء السلامة الذي يجب أن تلتجيء اليه تونس من مطامع مختلف الدول الأوروبية ٠ وكان ذلك ديدني في جميع الظروف والأزمان سواء بصفتي الخاصة أو حتى يوم كنت مجرد موظف بسيط لدى الوزير الأكبر ، وكنت أدافع عن حقوق السيادة التركية وأنصح الى البايات بالمحافظة عليها ورعايتها حفظا للكتلة والاتصال السلطاني ٠

وفي سنة 1288 هـ ٠ عند انتشاب الحرب الفرنسية الالمانية ، رأينا بمزيد الأسف الحكومة الايطالية تغتنم الفرصة من تضعضع فرنسا ، فبدأت تعقد الدسائس في تونس حتى أصبحت متخوفا أن يشتد التزاحم بين فرنسا وايطاليا وأن تقدم إحداهما ـ قريبا أو بعيدا ـ على بعض الأعمال القاسية المضرة بالايالة ٠٠ وسعيا وراء تدارك بعض تلك المفاجآت من ذلك النوع ، فقد كتبت اذاك الصدر الأعظم كتابا صورت له فيه مبلغ الخطر ، وشرحت فيه السيرة السياسية وما تدعيه فرنسا على تونس ، وكذلك ما أصبحت تتظاهر به ايطاليا ، وختمته باستنجاد الدولة الشاهانية واستعجالها لاصدار الفرمان الذي كنا آتفقنا عليه قبل . وأن تسعى الدولة العلية في

الاستحصال على اعتراف الدول الأوروبية به ، حتى يمكن التحصل على ضمان اكثر مفعولا لفائدة الايالة التونسية • وقد عمل الباب العالى باشارتى ، وعلى ذلـك فقد كتب عالى باشـا الى بـاى تونس يؤذنه بانتداب أحد موظفى الدولة الكبار الذين يمكن التداول معهم فى تلك المسألة الدقيقة • فوقع الاختيار على أيضا فوصلت الآستانة بعد بضع أيام من وفاة عالى باشا وولاية نديم باشا الصدارة العظمى وعلى أثر مذكرات طويلة بينى وبين أهم الوزراء العثمانيين أمكننا الاتفاق على نص فرمان موضوع على أسس اللائحة الوزارية التـى أسلفنا ذكرها ، فرجعت الى تونس مزودا بهذا الفرمان الذى احتفل الشعب والموظفون بتلاوته فى موكب رهيب (I) وقد قبله الباى بفرح وامتنان • ومع ذلك فقد امتنع من تنفيذ الاصلاحات الادارية والنظامية المفروضة فيه على المملكة • أما مسألة التحصل على الاعتراف الرسمى من الدول الأوروبية بذلك فهو الأمر الذى لم يكن متعذرا اذاك على الدولة العلية والذى لا يمكن لغيرها عمله ، ومع ذلك فان تكاسل الدولة ترك المجال فسيحا أمام فرنسا التى لم تشأ أن تعترف مـن بعد بشىء والتى استمرت فى سيرها كما سنراها •

ومع جميع الجهود التى كنت أبذلها والنتائج التى حققتها للوطن الذى استبنانى ، كان المستقبل يشغل ذهنـى ويضايقنى • فـان الفلاح والنعمة التى حصلـت كانت فى الحقيقـة نتيجـة مجهـودى الفردى • وشر ما كان يخيفنى أن ينهار كل ما بنيت بمجرد ذهابى ؛ لتسقط البلاد من جديد فى الفوضى والخراب •

امتنـاع البـاى عـن كـل إصـلاح

ونظرا لهاته الحقيقة ولحقيقة أخرى وهى ان الفرمان السلطانى الصادر سنة I288 لا يجب أن يبقى حبرا على ورق من ناحية مـا اشترط من الاصلاحات لادارة المملكة ، فقمت بمساع لـدى البـاى

(I) كان ذلك فى عام I288 هـ I87I فى عهد الباى محمد الصادق .

وأبنت له واجبه من إعلان الخضوع للارادة السلطانية ، ملاحظا له أن شرط حفظ حقوق الوراثة فى عائلته إنما هو إقامة دستور نظامى فى البلاد ، وتأسيس عدلية منظمة تحفظ أرواح وأملاك السكان ، شارحا له جميع الفوائد التى تنجر له ، وتبقى لاعقابه وللمملكة جميعا من تطبيق تلك القوانين المعقولة والثابتة ؛ فبها تفض جميع المشاكل وتنحل مرة واحدة ، وأخيرا رجوته أن يأذن — على الاقل — فى إعداد برنامج تحضيرى • ولكن الباى امتنع تماما من السير فى ذلك الطريق ، وتشدد وأصر على رفضه ذاك ، رغم جميع ما بذلته لكى يغير رأيه • وعندما أصبح من واجب الباب العالى أن يجبر الباى على تنفيذ ما ورد فى ذلك الفرمان السلطانى ، ولكن الدولة العثمانية لم تقم بشىء من ذلك ، ولم أر بدا من البقاء كما أمكن ، أدير المملكة حسب ما يمكننى من خير ، ما دمت متمكنا من منصبى • ولكن — كما سيظهر من بعد — فان مخاوفى قد تحققت بشدة ، فلم يكد يتربع مصطفى بن إسماعيل على رأس الحكومة التونسية حتى سقطت أكثر مما كانت ، وبدون مبالاة ، فى وهدة الفوضى والظلم والخيانة ، وقد ختم دوره بتسليم البلاد للفرنسيين •••

ومهما كان الباى متظاهرا بالرضى عن تصرفاتى تلك ، فقد كان متحسرا على العهد السالف ، بما كان يخوله من إطلاق ، له ولحاشيته ؛ فيتصرفون دون مسؤولية فى أموال الدولة ، وحتى فى أرزاق الأفراد ويعيشون بالملايين • فكان يشجع منادمه مصطفى ابن إسماعيل سريا ، وهو شاب أكثر سذاجة وجهلا مما هو طماع ومرتش ، فيحمله على الدس لى • ومن جهة أخرى فقد كان قنصلان أوروبيان مستقران فى العاصمة التونسية يسعيان بجد لفائدة سلفى مصطفى خزنه دار ، ولا يفتران على العمل لارجاعه للسلطة • كان هذان يتعاونان أيضا مع ذلك النديم على خلعى من الوزارة رغم تخالف غاياتهم ، وهكذا انتهوا بالاتحاد ضدى ، وان كان الأولان لا يقصدان الا استثمار دالة مصطفى بن اسماعيل ونفوذه على الباى لنصرة قضية خزنه دار ، بينما كان هو لا يهمه الا استعمال نفوذهم لخلعى أنا من منصبى ، لانه يعتمد من جهة أخرى على حضوته

القوية عند الباى • وهكذا ابتسم الحظ لمصطفى بن اسماعيل كما سنرى من بعد ، ولم يحصل القنصلان الا على الخيبة فيما كانا يسعيان اليه ويدسان • وأخيرا فان ممثل فرنسا كان يثير ويحث الباى ضدى مشنعا ومضخما انعطافى نحو تركيا ، وهو فى ذلك دائب التتبع لتضليل خطاى والتدليس بمسلكى الواضح نحو الامبراطورية العثمانية •

ذلك هو موقفى فى تونس عندما أعلنت الحرب التركية الروسية وطلبت تركيا ـ كما هو طبيعى ـ من الباى حسب منطق الفرمان السلطانى 1288 هـ • ان يقدم لها معونته وجهده الحربى ، ولكن ظهر أن الباى أبعد ما يكون عن تنفيذ ذلك فجمعت تحت رئاسته مجلس الوزارة فى هاته المسألة الهامة • فاعترف المجلس بوجوب طاعة الباب العالى ، ولكنه أعلن أن المملكة فى حالة لا تبيح لها أى نجدة مالية كما أن جيشها الحالى فى نفسه لا يكاد يكفيها • وقد اعتمد الباى تلك الاعتبارات فأراد أن يكون جوابنا بالرفض الخالص البسيط ٥ ولكننى أنا الذى كنت الساعى فى ربط تلك العلائق ووضع حقوق السلطنة المتكاملة على تونس ، مما أراه ضامنا لراحة المملكة وحافظا لها من الحدثان •• لم يكن فى طوقى ـ بعد ان كنت العامل على تلك الوحدة والتقارب المربوط بفرمان سنة 1288 هـ • ـ أن أنكص تماما إزاء هاته الحالة الراهنة ، ولا أن تقوم وزارتى بمثل هذا العمل المنافى لواجب الوفاء والتكامل الاحساسى ، بقدر ما هو مناف أيضا لخططى وقواعدى السياسية •

مؤتمر ضد الباى

فلم أر بدا للتفصى من المسؤولية وقياما بما أشعر به من الواجب ان اطلب عقد مؤتمر عام يحضره عموم كبار الموظفين والعلماء وزعماء البلاد وأكابرها • وتألف هذا المؤتمر من مائة عضو تحت إشراف الباى ، فعرضت عليه مطلب السلطنة العلية وشرحت له واجبنا نحو الفرمان •• كما بسطت للمجلس من الناحية الأخرى

ضنكتنا المالى والعسكرى ، ثم كشفت لهم وجوب القيام بما يفرضه علينا الدين ، مما يجسم حقوق السلطنة ويبرزها عمليا ، وعرضت عليهم أن نلتجىء الى الأمة فندعوها لفتح اكتتاب عام لنرسل المعونة لتركيا • فاستحسن المؤتمر الخطة وأقرها ، وهكذا أعلن بالاكتتاب فى الجريدة الرسمية « الرائد التونسى » ولم يكد ينشر حتى أرسلنا الى الآستانة الدفعة الأولى المتجمعة وهى 1.400.000 فرنكا تجمعت حالا تقريبا ، وأتبعناه بثان يبلغ 300.000 فرنكا فى أيام معدودات • وبعد ذلك ألحقت إرساليات أخرى لا أتحقق تفصيلها لأنى كنت قد قدمت تسليمى من الوزارة إثر الارسالية الثانية لذلك لا يمكننى معرفة مقدارها ولا معرفة ما عملوا بما جمع من أطراف المملكة • وزيادة على المال العين فقد أرسلت للآستانة سبعمائة بغل وأربعمائة من الخيل جمعت من عطايا المملكة ، وقد كانت الدولة العلية طلبت شراءها لحسابها •

حقد ودسائس

وهذا التصرف الذى صادق عليه المؤتمر الذى عقدناه بصفة استثنائية ، والذى عمل على إنجاحه الاحساس الصادق الشريف من جميع التونسيين ، جعل الباى ينظر الى بحذر ، وأيقظ فى أعدائى إحساساتهم الجامحة ، كما أنه جر على بغضاء فرنسا ، وبالفعل فان ممثل هاته الدولة عمل كل جهده لتعطيل الاكتتاب واتحد جهارا ضدى مع مصطفى بن إسماعيل ، مغتنما الفرصة لتوجيهه الى ناحية نظره ، وعلى وعد إقامة سياسة مضادة لسياستى ـ كما هو طبيعى ـ

ومع ميل الباى عنى وتشجيع أعدائى الذين نموا وازدادوا ••• لم يجد عذرا صحيحا يقيلنى به من الوزارة ، خصوصا مع خدماتى التى لا تنكر • ولكن معاملته نحوى أخذت تتغير بما لا يتفق مع تحملى • ولا شك أنه كان يريد إملالى لأقدم تسليمى ، الأمر الذى لم ألبث الا قليلا حتى أقدمت عليه فسمى مصطفى بن إسماعيل فى

منصبى (1) ، واغتنمت فرصة تسليمى فسافرت مرتين لفائدة صحتى البدنية متوجها نحو أوروبا ومياهها المعدنية (2) .

عند رجوعى من رحلتى الثانية اتصلت من الأمين الاول لجلالة السلطان بتلغراف ، يبلغنى به الاذن لى بالوصول الى الآستانة (3) فرفعت هذا الاذن السلطانى الى البـاى الذى أذن لى فى ذلك بعـد مداولته مع أخصائه ووزرائه .

ولما بارحت تونس لم أكن مصحوبا بتأسفات الأمة عموما فقط . بل وقد تنزلت عبارات الحسرة من فم الباى نفسه . وحدثنى القائم بأعمال فرنسا أنه كان سأل الباى عن سبب قبوله باستقالتى ؛ وقال انه أجابـه :

« انى لم افترق مع الفريق خزنه دار على مثل ما كان من سلفه ، حيث ان هذا الأخير قد ارتكبت ذنوبا حقيقية ، بينما الفريق خيـر الدين لا نرى بدا من الاعتراف بخدماته فقد قـام بواجبات عظيمة ، سواء نحوى أو لبلاده ، ولم يأت بيننا شىء اللهم الا اختلاف وجهات النظر السياسية التى أنت أعرف الناس بها » .

والصادق باى يشير فى ذلك الى مؤاخذتى على ميلى فى سياستى الى الارتكاز على تركيا . الأمر الذى كان يجاهر به جميع جلسائه ومن يحدثه فى الأمر .

ولكن لم يلبث الا قليلا حتى حدث ما يدهش من مبلغ عدم تطابق وانعدام التجانس بيـن مختلف أجـزاء تلك الكتلة المتنافرة التـى اتحدت لمناوأتى .

---

(1) فى الواقع ان الذى ولى اثر خير الدين الوزارة رسميا إنما هو محمد خزنة دار ، وكان ابن إسماعيل من ورائه يعمل كل شىء حتى استلمها بعد عام وربع سنة 1878

(2) فيشى سنة تسليمه 1877 وسانت نيكثير فى شهرى جوان وجويلية 1878 .

(3) هذا التلغراف صادر من بيرة يوم 26 أوت على الساعة 4 و 50 د .

تهـــم فاشلـــة وباطلـــة

فنفس هذا الباى ووزيره مصطفى بـن اسماعيـل اللذان كانـا يتهمانى عندما كنت بينهم فى تونس بالارتماء فى أحضان تركيا فى صورة وبأسلوب يعقد المشكل مع فرنسا ، لم يتأخرا بعد التحاقى بالآستانة عن اتهامى بمناصـرة الجانب الفرنسى ، محاوليـن بهاته التهمة الغريبة المحدثة أن يلقوا الريب عـلى لدى جلالة السلطان ، الذى كان يعلن ثقته فى ٠ وقد أوفـدوا لذلك سعادة يلاحقوننـى بالدسيسة الى تركيـا ، ويذيعون الاشاعـة بأنى أنا هو الذى مهـد السبيل لتسليم تونس للفرنسييـن بمنحهم من قبل امتيـاز ربط العاصمة التونسية بخط حديدى يتصل بالجزائر ، وبيعى من بعد ذلك أملاكى التـى فيها قسم مهم من أراضـى المملكـة الى شركـة فرنسية (I) ٠ وقد تلقف خصـومى السياسيون فى القسطنطينية هذا السلاح ليضايقونى به فى الثقة التى كنت أتمتع بها لدى الجلالة السلطانية ، غير مهتمين بما يعود به على من النغم ، عندما أكشف النقاب على مبلغ كذبه وما فيه من تزوير ، بحيث انقلب الى فائدتى تماما ضد مغامزهم ٠

وهاكم الحقيقة فى امتياز سكة الحديد وبيع أملاكى فى تونس

امتيـــاز السكـــة الحديديـــة

منذ خمسة عشرة سنة تقريبا ، فى عهد وزارة سلفى مصطفى خزنه دار ، تقدمت شركة انكليزية بمشروع مد خط حديدى بين تونس وحلق الوادى حيث الرصيف البحرى ، وبنى الخط منذ مدة ووقع استعماله ، ثم لم يلبث أن باعتـه هاتـه الشركة الى شركـة

(I) هى أراضى الزياتين فى منطقة النفيضة والتى بقيت تديرها الشركة المذكورة حتى عام 1964 حين صدر قانون I2 ماى باسترجاع جميع الاراضى الباقية فى أيدى المعمرين (ك) .

ايطالية لا يزال فى ملكها وتصرفها الى اليوم وبعد مدة تقدمت شركة انكليزية أخرى بمشروع ثان لمد خط يخرج من العاصمة متجها الى « دخلة جندوبة » ومن هناك يسير الى « الكاف » التى هى من أهم المراكز الفلاحية بالبلاد الواقعة فى منتصف الطريق بين العاصمة والحد الجزائرى ٠ وحازت هذه المنحة وموافقة الأمير ومستشاريه ، مع تقديرهم لما تعود به من فائدة وخير على المملكة ووسائل النقل فيها ، خصوصا والشركة الانكليزية لم تطالب بأى تسبقة ، وتحملت القيام بجميع واجبات العمل ونفقاته ٠ ولكن بعد أن أبرمت المنحة ظهر أن الشركة قد عجزت عن جمع الأموال اللازمة ٠ ولم تتمكن من الوفاء حتى فى عهد وزارتى برغم التمديدات فى الآجال التى وافقنا عليها ، بل انتهت باعلاننا بأنها لا تتمكن من اتمام شىء اللهم الا اذا ضمنت الدولة للمساهمين دخلا نظاميا قدره خمسة فى المائة أو تتحمل الحكومة التونسية بربع النفقات ٠ فلم تر الحكومة بدا من الغاء تلك الاتفاقية بالامتياز ٠

وبعد مدة تقدمت شركة فرنسية بمشروع ربط العاصمة التونسية مع الجزائر ٠ فلم يخف عنا ما فى ربط حدود البلادين من خطر بحيث إنى تجاسرت على رفض المشروع حالا دون أن أتقدم به حتى للباى مصرحا بأن كل ما يمس حدود البلاد انما هو من خصائص الباب العالى ، وما على الشركة الا أن تتقدم به الى الدولة العثمانية ٠

وعندها أحجمت الشركة على المشروع ، ولكنها غيرته وعرضت علينا من جديد أن تدخل مدخل الشركة الانكليزية بنفس الشروط والقيود المعينة أولا ٠

فلما بلغت المسألة ذلك الحد ، تغير وجهها ، حيث ان تأسيس هذا الخط والأهمية التى أعطيت له من الناحية الداخلية لا تتغير بتغير جنسية الشركة التى تتولاه ، بينما اذا نظر للأمر من الناحية الدولية فاننا ليس من الممكن ان نرفض على الفرنسيين ما سمحنا به للانكليز ، ولا يمكن أن ينتج على ذلك الا تعقد المشاكل ، فألقيت بالأمر الى مجلس الوزراء الذى درس المسألة من جميع وجوهها ، وعرف استحالة رفض مطالب الشركة الفرنسية دون أن يرى فى

الأمر حرجا من ناحية استيلاء فرنسا على الجزائـر ، بـل لاحظ أن فرنسا معترف لها بجميع الامتيازات والحقوق التى تعطى لغيرهـا من الدول الأجنبية (1) . وهكذا أعطيت المنحة الى الشركة الفرنسية بنفس الشروط والتعهدات التى قبلت بها الشركة الانكليزية .

أما ما يخص تمديد الخط الى الحدود الجزائرية فلم تنل الشركة من الحكومة التونسية الا مجرد التزام لها بأن تمكن منه غيرها من الشركات الأجنبية .

وبعد ثمانية شهور من انسلاخى (2) وتسليم خلفى مصطفى بن إسماعيل لمقاليد الأمور وقعت المصادقة على ذلك التمديد فى الخط دون مدافعة جدية .

فهل إذا تورط الباى ووزيـره مصطفى بن إسماعيل فى هاتـه الهفوة بعد استقالتى يمكن أن تحمل جريرتها على عاتقى ؟ .

ومن جهة أخرى فانـى لا أقر أبدا ولا أصـادق من الناحيـة السياسية بما يعتقده أصحاب النظر القصير من أن ذلك الطريق الرابط بين الجـزائر وتونس يجعـل هاته تحت رحمـة فرنسا ، وإنما المسألة فى الفكرة الأوروبية ومبلـغ احترامها لكيان السلطنة العثمانية ، ففى ذلك وحده نجد الضمانات الحقيقية لكيان الايالة ، ولكن منذ ما سمحت السياسة الاوروبيـة الى دولة مثل فرنسا ان تنقض على فريسة صغرى وضعيفة مثـل تونس .. فلا يمكـن أن يؤخر القضاء زيادة أو نقص خط حديدى ، وبالفعل فان الفرنسيين قد احتلوا الايالة فى بضعة أيـام ، اذ أنزلوا جيوشهم فى طبرقـة

---

(1) تنص المعاهدة المعقودة فى 16 صفر 1246 هـ / 1830 م بين حسين باى وشارل الخامس ، فى الفصل السادس : « ان فرنسا لا تطلب لنفسها أدنى امتياز تجارى ، ولكن سمو الامير يتعهد منذ اليوم وفيما يأتى أنه يمكن فرنسا من جميع الحقوق والتسهيلات والامتيازات التى يعترف بها لاى جنسية أجنبية أخرى بمجرد طلب من القنصل » .

(2) أى تسليمه .

وبنزرت واخترقوا الحدود الجبلية من جهة خمير وسهول تبســة ، دون أى التفات لذلك الخط الحديدى الذى كان لا يزال يبنى لعهدها.

آمـــــــلاكـــــى

أما مسألة بيع أملاكى فى تونس فلا بد أن نقول قبل كل شىء إن الدول الاوروبية كانت قد تحصلت منذ 25 سنة على حق تملك الأجانب بالتراب التونسى أى قبل 15 سنة من وزارتى . وبالفعل فان خير القطع الفلاحية انتقلت لملاك من الانكليزيين والفرنسيين والايطاليين وغيرهم .

وأملاكى فى تونس تتألف من :

1) قصورى الثلاثة التى ابتناها لى البايات جزاء خدماتى (1) .

2) غابة الزياتين التى أهدانيها أحمد باشا (2) .

3) دار كبرى تجرى فيها المياه المعدنية فى حمام الأنف أهدانيها محمد باى .

4) أراضى النفيضة المهمة التى منحنى إياها الصادق باى عندما جئته بالفرمان السلطانى الذى ينص على تثبيت العائلة الحسينية فى عرش تونس .

ذلك ما كنت أملكه فى تونس وخارجها بغض النظر على « اليالى » المشرف على البوسفور والــذى تكرم على بــه جلالة السلطان عند حلولى بالآستانة . وذلك كما قلت هو جميع ما كنت أملكه رغم التخرصات الفارغة حول ثروتى .

فلما فارقت تونس مع جميع عائلتى شعرت بالحاجة لان يكون معى جميع ما أكسب ، خصوصا لأواجــه نفقاتى وإقامــة وتأثيث محــل

---

(1) قصر تونس وهو فى بطحاء التريبونال وقد قلب الى مدرسة تسمى الى اليوم بمدرسة خير الدين ، والثانى فى منوبة ، والثالث فى أملاك آل بيرم وقد قامت حوله بلدة مسماة باسم « خير الدين » بين « الكرم » و « حلق الوادى » .

(2) وهى الكائنة بين مرناق والجبل الأحمر وأريانة .

بما يناسب مركزى . ثم لاحفظ مستقبل أبنائى . وقد أصبحت مداخيلى من تلك الأملاك تتناقص تبعا لما تسقط له الحالة العامة فى البلاد من التدهور . فلم أر بدا من بيع تلك الأملاك ، حتى لا تزيد سقوطا ، وحتى أكفى أعقابى مؤونة الصعوبات التى قد تحدث لهم بعدى فى إدارة تلك الأملاك البعيدة (I) ثم فوق ذلك لنتمكن من اقتصاد معلوم إدارتها والقيام بشؤون تلك القصور . وكان ، أول مساعى هو أن كاتبت الدولة التونسية عارضا عليها أخذها أو مساعدة بعض رعاياها على اقتنائها ، ملاحظا لهم أنى قد كاتبت وكيلى فى تونس وآذنته بانقاص للتونسيين الذين يشترون شيئا من تلك الأملاك IO فى المائة من الأثمان التى يبذلها الأجانب . وقد شهر وكيلى ذلك وأعلنه للتونسيين ، ومع ذلك فقد انتظرت سنة كاملة دون أن يتقدم تونسى واحد بأى عطاء أو جواب . فلم أر بدا اذاك من أن أبيع أملاكى تلك الى « سوسيتى مارسيلز » . مع ملاحظة أن الوزير مصطفى بن إسماعيل قد باع فى نفس الوقت أملاكا أهم من أملاكى وأثمن للأوروبيين بل للفرنسيين أنفسهم .

وأخيرا فانى أسأل ولئك الذين هم أكثر الناس تهويشا وصخبا ضد بيعى أملاكى هل يحسبون حقا فى قرارة نفوسهم أن ازدياد أملاك الفرنسيين ببضعة آلاف الهكتارات من الأراضى التى يمكنهم أن يأخذوها بكل سطوة حسب الاتفاقات ، هل هى التى جعلت وزارة باريس ترسل غزوتها لتونس . لا شك أن ليس هناك عاقل يقول ذلك ، فالاحرى أن نبحث عن الأسباب التى دفعت بالفرنسيين الى احتلال تونس بمدارك أرقى من هاته التعاليل السخيفة .

إن رجال السياسة لا يجهلون مبلغ الشراهة التى يبديها الفرنسيون لفرض سلطتهم وتمديد نفوذهم على تونس منذ فتحهم للجزائر . باعتبارها متاخمة لحدود ممتلكاتهم ، حتى أنها (أى فرنسا) كانت ترفض الاعتراف لتركيا بأى حق أو نفوذ على تونس . ومنذ دهر كان أمراء تونس ووزراؤهم يعالجون تنازع الاتزان بين

(I) فى هذا ما يفيد أن خير الدين كان يائسا من العودة يوما ما ، هو أو أبناؤه الى تونس (ك) .

مصالح ونفوذ الباب العالى وفرنسا . وكانت فرنسا فى الاول مكتفية بنفوذها الأدبى الذى لم يكن يتدخل فى أى شىء من مجريات الأمور وقد دامت هاته الحالة دهرا اللهم الا بضعة ارتجاجات خفيفة الى سنة 1780 . وفى ذلك التاريخ أسس الايطاليون وحدتهم حول رومة العاصمة فاتجهت أنظارهم الى قرطاج . وكانت ايطاليا لذلك العهد ليس لها مع تونس الا بعض الاتصالات الاقتصادية البحتة . ولكن منذ يومها – وخصوصا مدة الحرب الفرنسية الالمانية (حرب السبعين) – أخذت تتقدم فى مساعيها السياسية وتزاحم التيار الفرنسى .

وفى حقبة العشر سنوات التى قضيتها على رأس المصالح التونسية تمكنت من إدارة الدواليب بحيث أوجه قوى ذلك التزاحم بينهما ضد بعضهما بعضا ، فأجد بينهما التوازن المرغوب لا تمكن من تمكين نفسى من جهة أخرى وأتفرغ لتوثيق وتدعيم الصلة التركية بالفرمان السلطانى لسنة 1288 .

والكن عند مبارحتى الوزارة اندفع خلفى مصطفى بن إسماعيل ، بطمع أثيم وغطرسة وجهل ، فارتمى بين يدى الممثل الفرنسى الذى رأى مطامحه تنفذ بأكثر مما كان يدخل فى تقديره ومن يومها أصبحت القنصلية الفرنسية ذات نفوذ مطلق فى تونس ، فلا يأتى مصطفى بن اسماعيل والحكومة التونسية أى عمل الا على مشورتها ولا يتمنى القنصل شيئا الا كان كما طلب . فمن « كمبانية بون قالمة » (1) التى لا تكتفى بتمديد امتيازها من خط الكاف الى ربطه بطريق الجزائر ، حتى يبيح لها مد الخطوط حيث رأت من المملكة الى امتياز ابتناء مرسى بحرية فى نفس العاصمة . حتى بلغ الاحتكار أن التزمت الحكومة التونسية بأن لا تعطى أشغالها العمومية الا للفرنسيين .

فانزعجت ايطالية من هاته السيرة والطريق الحديدية ، وانقطع

---

(1) هى شركة السكك الحديد الرابطة بين الجزائر وتونس ، والتى تحدث عنها سابقا (ك) .

ممثلها م . ماكسيو عن صلاته من الوزير مصطفى بن اسماعيل ، وأعلن حربا شعواء عليه وعلى السياسة الفرنسية ، نذكر من ذلك جريدة « المستقبل » التى كانت تطبع بالعربية فى « قافلياري » وتوزع مجانا بالآلاف فى تونس وحتى فى الجزائر ، وكانت تشن الغارات الشعواء على مصطفى بن إسماعيل والسياسة الفرنسية .

وقد دام ذلك ردحا من الزمن ثم لم يلبث أن استولى الذعر على أمير تونس ووزيره ، فارتأيا استمالة ايطاليا ومسالمتها ، فقلب مصطفى بن إسماعيل ظهر المجن تماما ، فقد انقطع عن الممثل الفرنسي لينقطع جسما وروحا الى السيد ماكسيو . وتحت تأثير هذا الأخير بدأت الحكومة التونسية ترفض جميع ما يعرضه الفرنسيون من المقاولات والاشغال ، حتى التى كان منحها لهم ، متمردا على كل ما كان لهم من التأثير . بل تمكن النائب الايطالى من دفع الباى الى أبعد من ذلك فى هذه الطريق .. حيث حداه الى إرسال بعثة وعلى رأسها أخوه لتهنئة ملك إيطاليا ، كجار وكصديق ، بمناسبة زيارته لصقلية « سيسيلية » وقد نجحت منورات إيطاليا تلك حتى حسب « ماكيون » انه قد قضى على الفرنسيين فى تونس وقد خفى عليه أن الأمور قد سارت خطوة لا يسهل الرجوع عنها بالنسبة لدولة كفرنسا .

حسب ماكسيو أنه قد قضى على الفرنسيين فى تونس ، وقد خفى عليه أن الأمور قد سارت الى الأمام كثيرا حتى لا يمكن لدولة كفرنسا أن تتأخر وترضخ لاهانة مثل تلك دون أن تجرد الحسام للدفاع عما اكتسبته . وبالفعل فقد توجدت حادثة « خمير » ، وتحت ذلك العذر المخصص (I) اجتازت الجيوش الفرنسية حدود البلاد التونسية . وعندها فقط عرفت الحكومة الايطالية أنها قد أخطأت التقدير ، اذ وجدت نفسها غير متهيئة لان تقارع فرنسا بالسلاح فى تونس ، ورضيت بمراجعة نائبها الجسور وأن تترك الباى للقدر .

(I) اى المفتعل خصيصا لغرض الاحتلال (ك) .

أما بقية الحوادث فهى أشهر من أن تحتاج لبياننا هنا ٠

تلك هى حقيقة ما جرى فى تونس والتى لدى وثائق عنها ٠ الأمر الذى يكسبنى كامل الحق بأن أصدم به أعدائى السياسيين ، وأن أثبت قطعيا أنى كنت فى جميع حالاتى والأوقات التى قضيتها فى وظائفى التونسية العالية ، وطيلة العشر سنوات الأخيرة ٠ بين وزير الشؤون الخارجيه ووزير للمالية ورئيس للوزراء ، كنت دائما المحامى الاعظم على الحقوق التركية التى تدين بها تونس ، والذى كان يتصيد جميع الفرص السانحة لتثبيت مركز وسعادة تلك المملكة الصغيرة ، بتعليقها من جهة فى جناح السلطنة العثمانية بروابط الدين والسياسة ، ثم من جهة أخرى بتمتين العلائق الطيبة مع مختلف الدول الأوروبية ٠ وقد كان اعتلاء خصومى منصة الحكم نقطة تحول لادارة ضعيفة اقتادت البلاد فى ظرف سنتين الى خرابها وقضت على الحقوق المكتسبة ومصالح الخلافة ٠

* * *

الى هنا انتهى به الحديث فى مذكراته هاته على القسم التونسى من حياته ٠

وقد تابع تاريخ حياته فبين كيف استقدمه السلطان الى الآستانة ثم توليه الصدارة العظمى والمشيرية وما وجد عليه الدولة العلية ثم فصل المسألة المصرية من قبل محمد على لعهده ثم مسألة الحدود اليونانية ٠٠٠

وكل ذلك قد نشر بنصه الفرنسى فى الأعداد 16 و 17 و 18 و 19 من « المجلة التونسية » التى ينشرها معهد قرطاج فى مجلد العام السالف 1934 فلتراجع هناك ممن يتطلب التوسع ٠

ثم ذيل مذكراته تلك بمجموعة من الوثائق الكتابية التى حيكت حول خرافة تفكير تركيا فى تنصيبه (خير الدين باشا) نائبا عن جلالة السلطان وواليا لتونس عوض محمد الصادق باى ٠ (1) ٠

(1) هذا نهاية ما وجدناه منها فى مجلة « العالم الادبى » التونسية (1935 ـ 1936) « الناشر » .

الفهرس

اعلامنا

سلسلة دراسات ونصوص للتعريف بافذاذنا
في التاريخ والأدب والفكر .

*

صـــدر منهـــا :

	الثمن م.ت.
1 ـ عبد الرزاق كرباكة	0.160
2 ـ ابن هانىء المغربى (الأندلسى)	نفـد
3 ـ خير الدين التونسى	0.500

تحـــت الطبـــع :

4 ـ ابن منظور الافريقى
5 ـ التيفاشى القفصى
6 ـ محمد الخضر حسين
7 ـ أحمد رضا حوحو
8 ـ محمد العريبى
9 ـ الطاهر الحداد
10 ـ سليمان الحرائرى

منشورات



م.ت.	مكتبة الشابي
نفد	ـ رسائل الشابى
نفد	ـ دراسات عن الشابى

اعلامنا

0.160	ـ عبد الرزاق كرباكة
نفد	ـ ابن هانيء المغربى الأندلسى
0.500	ـ خير الدين التونسى (حياته ، مقدمته ، مذكراته)

كتب مختلفة

0.600	ـ كفاح وحب (طبعة ممتازة)
0.100	ـ ثورة العبيد (شعر)
0.100	ـ أوراس (شعر)
0.450	ـ الزيت والتمر (قصص)
0.450	ـ اعلام من بنزرت
0.500	ـ دراسات فى الأدب العربى الحديث
0.500	ـ شعراء القيروان
0.200	ـ الوطنية فى شعر ابن حمديس
0.700	ـ أدباء تونسيون
0.600	ـ رواد الاصلاح
0.650	ـ عصر القيروان
0.350	ـ الحرية فى الاسلام

نجوم الفن

0.150	ـ صليحة
0.100	ـ على الرياحى

هذا الكتاب

خير الدين رجل لم تلده تونس ، ولكنه وفد اليها شابا ، فاحتضنته وتبنته ، ثم منحته اسمها وثقتها فمنحها حبه واخلاصه ، وانقطاعه لخدمة شعبها وبناء مستقبله ، فكانت له أما رؤوما وكان لها ابنا بارا وفيا .

كان خير الدين عسكريا ، ومصلحا اداريا ، وسياسيا قديرا ، ومفكرا بصيرا ، عالج الأمور بسداد رأى وقوة عزيمة وضمير يقظ نظيف .. ولكن الدسائس والخيانة وفساد الملوك وانانيتهم جعلته عاجزا عن الوصول الى الغاية وحماية الوطن من الاستبداد والتدخل الاجنبى .. فتخلى عن كرسى الوزارة ، ولكنه كان عظيم الأمل فى المستقبل .. واليوم — وقد تحقق الأمل الذى كان يرجوه — وجب ان نذكره ، وان نعرض حياته للجيل الجديد ، ليزداد فهما وتقديرا لماضيه المجيد ، وتراثه الرائع ، وعظماء أمته الخالدين .

الثمن : 500 م.ت.

